مسابقة

الوحيين

مسابقة الوحيين السابعة
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

المحور الأول

سورة الأنبياء

١٤٤٥هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مسابقة الوحيين

مسابقة الوحيين السابعة
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

سورة الأنبياء

بَيانُ مَعالِمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِيَ الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه، وإثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

المادة العلمية لمسابقة الوحيين السابعة
نادي النورين
١٤٤٥هـ

تفسير السورة

الصفحة

المقدمة	٢
ما مسابقة الوحيين؟	٣
محتوى الكتيب وأهم المراجع	٤
التعريف بالسورة	٥
المقطع الأول (الآيات: ١-٥)	٧
المقطع الثاني (الآيات: ٦-١٠)	١٢
المقطع الثالث (الآيات: ١١-١٨)	١٦
المقطع الرابع (الآيات: ١٩-٢٣)	٢١
المقطع الخامس (الآيات: ٢٤-٢٩)	٢٥
المقطع السادس (الآيات: ٣٠-٣٣)	٣٠
المقطع السابع (الآيات: ٣٤-٤٠)	٣٤
المقطع الثامن (الآيات: ٤١-٤٧)	٣٩
المقطع التاسع (الآيات: ٤٨-٥٠)	٤٥
المقطع العاشر (الآيات: ٥١-٦١)	٤٨
المقطع الحادي عشر (الآيات: ٦٢-٧٠)	٥٣
المقطع الثاني عشر (الآيات: ٧١-٧٥)	٥٨
المقطع الثالث عشر (الآيات: ٧٦-٧٧)	٦٣
المقطع الرابع عشر (الآيات: ٧٨-٨٠)	٦٦

الصفحة

المقطع الخامس عشر (الآيات: ٨١-٨٢)	٧٠
المقطع السادس عشر (الآيات: ٨٣-٨٤)	٧٣
المقطع السابع عشر (الآيات: ٨٥-٨٨)	٧٧
المقطع الثامن عشر (الآيات: ٨٩-٩٠)	٨٢
المقطع التاسع عشر (الآيات: ٩١-٩٤)	٨٦
المقطع العشرون (الآيات: ٩٥-١٠٠)	٩٠
المقطع الحادي والعشرون (الآيات: ١٠١-١٠٥)	٩٦
المقطع الثاني والعشرون (الآيات: ١٠٦-١١٢)	١٠٢

قصص الأنبياء

	الصفحة		الصفحة
قصة موسى عليه السلام	١٠٨	قصة أيوب عليه السلام	٢٣٠
قصة إبراهيم عليه السلام	١٥٨	قصة إسماعيل عليه السلام	٢٣٨
قصة لوط عليه السلام	١٨٣	قصة إدريس عليه السلام	٢٤١
قصة نوح عليه السلام	١٩٣	قصة ذو الكفل عليه السلام	٢٤٥
قصة داود عليه السلام	٢٠٦	قصة يونس عليه السلام	٢٤٧
قصة سليمان عليه السلام	٢١٦	قصة زكريا ويحي عليهما السلام	٢٥٦

المقدمة

الحمد لله واهب النعم، دافع النقم، منجي العباد من الظُلم، والصلاة والسلام على هادي الأمم، خير الورى محمدٍ ﷺ وعلى آله وصحبه، وبعد:

خلقنا الله سبحانه لعبادته، قال جل وعزّ: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، ومن كمال حكمته ورحمته أن شرع لنا سبل العبادة التي يرتضيها، وأظهرها لنا كاملةً في مصدرَي التشريع الإسلامي: (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ).

أكمل لنا فيهما ديننا وأتمّ علينا بهما نعمته، وجعل فيهما هداية الضال ورشاد الحائر وجواب السائل وأمان الخائف وحفظ الأرواح والأبدان، من تمسك بهما فاز وظفر، وغنِم وسَلِم، ومن أعرض عنهما فاتته حظوظ الدنيا والآخرة.

هما سبيل الهداية من الفتن والثبات على الصراط المستقيم، وأعظم طريق يدل على الله بأسمائه وصفاته وعظيم فعاله.

لذا كان لزامًا على كل عاقلٍ أن يلازمهما ملازمة الغريم لغريمه.

ومن هذا المنطلق أُطلقت مسابقة (الوحيين)، لتكون عونًا لكِ على تدبر الكتاب والسنة، وحفظهما والعمل بما فيهما.

ومن هُنا، تشرف جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل، متمثلةً بنادي النورين، بإقامة مسابقة الوحيين لعامها السابع بمشيئة الله.

ولذلك؛ أُعِدّ هذا الكُتيّب الخاص بسورة (الأنبياء) إحدى محاور المسابقة، والذي يخولك الارتواء من معين السورة، وفَهمًا لتفسيرها وقصص الأنبياء فيها، واستخراج المعاني من أحاديثها... وغير ذلك.

ما مسابقة الوحيين؟

مسابقةُ الوَحيَيْن هيَ مسابقةٌ سنويَّة، يُقيمها نادي النورَيْن، التابع لجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل؛ تُتيح فرصة التنافُس في حفظ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، بين طالبات الجامعة.

تهدف المسابقة إلى تشجيع المُشارِكات على حفظ القرآن الكريم وفَهمه وتدبُّره، وفهم قصص الأنبياء فيها، والاستشهاد بالسُّنَّة النبويَّة واستخراج المعاني منها؛ وذلك من خلال ثلاث سورٍ مختارة، مع مادة تدبُّريَّة مُعَدَّة لكل سُورة، تكونُ مرجعًا للمتسابقات وعليها يقوم التنافس.

وبتوفيق الله ومنِّه، تتجدد المسابقة في دورتها السابعة لهذا العام ١٤٤٥هـ، برعاية كريمة من معالي مدير الجامعة: د.عبدالله بن محمد الربيش حفظه الله.

سُور مسابقة الوحيين السابعة ومحاورها:

١- **المحور الأول: (سورة الأنبياء)**: وفيها بَيانُ مَعالِم التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِيَ الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه، وإثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

٢- **المحور الثاني: (سورة إبراهيم)**: وفيها التذكيرُ بنِعَمِ الله على الناسِ، وتحريضُهم على شُكرِها، وتحذيرُهم مِن جُحودِها وكفرِها.

٣- **المحور الثالث: (سورة ص)**: وفيها إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ.

وللمزيد عن المسابقة:

يُرجى مُتابعة مُغرِّد نادي النورَين Nourainclub

محتوى الكتيب وأهم المراجع

١- **التعريف بالسورة**، ويشمل: (اسم السورة، ونوعها، وفضلها، ومحورها، وموضوعاتها).

٢- **آيات المقطع.**

٣- **بيان غريب الآيات والتفسير**، واعتُمِد فيهما على كتاب: التفسير المحرر.

٤- **الفوائد التربويَّة:** وتشمل كل ما يتعلَّق بالسلوك والأخلاق، وعرض النَّفس على الآيات ومُحاسبتها، واعتُمِد فيها على كتاب: التفسير المحرر.

٥- **قصص الأنبياء:** اشتملت السور الثلاث على قصص الأنبياء عليهم السلام، واعتُمِد فيه على كتاب: فبهداهم اقتده لـ د. عثمان الخميس، وكتاب: القصص القرآني لـ د. صلاح الخالدي.

٦- **خاتمة السورة.**

أخيرًا...

شرف التنافس بشرف ما نتنافس لأجله، فهنيئًا لكِ تنافسكِ في هديِ الآي والسُّنَّة.

استحضري أخلَصَ النوايا فهي محل نظر الله سبحانه، واستعيني به لبلوغ أعلى الدرجات في الدَّارَيْن.

ألبسكِ الرحمن بالوحيَيْن الحُلل، و أسكنكِ بهما الظُّلل، وأطاب بهما عيشكِ، وأقرَّ بهما قلبكِ.

التعريف بالسورة

أسماء السورة

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأنبياءِ).

فضائل السورة وخصائصها

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه.

بيان المكي والمدني

سُورةُ الأنبياءِ مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.

مقاصد السورة

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة

١- بَيانُ مَعالمِ التَّوحيدِ، وإقامةُ الأدلةِ عليه، وما لقِيَ الأنبياءُ في سبيلِ الدعوةِ إليه.

٢- إثباتُ المعادِ، وبيانُ الأدلَّةِ على وُقوعِه.

موضوعات السورة

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ

١- الإنذارُ بالبَعثِ، وتحقيقُ وُقوعِه.

٢- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الشُّبُهاتِ التي أثارها المُشرِكونَ حولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودَعوتِه، والرَّدُّ عليها.

٣- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا قاله المُشرِكونَ في شأنِه.

٤- التَّذكيرُ بما أصاب الأُمَمَ السَّالِفةَ مِن جرَّاءِ تَكذيبِهم رُسُلَهم.

٥- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى شُمولِ قُدرتِه.

٦- ذِكْرُ أخبارِ بَعضِ الأنبياءِ، ومنهم موسى وهارونُ، وإبراهيمُ ولُوطٌ، وإسحاقُ ويَعقوبُ، ونوحٌ، وأيُّوبُ، وداودُ، وسُلَيمانُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ، ويُونُسُ، وزكريَّا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٧- تعقيبُ أخبارِ الأنبياءِ بالمقصودِ الأساسيِّ مِن رِسالتِهم، وهو دَعوةُ النَّاسِ جميعًا إلى إخلاصِ العبادةِ لله.

٨- ذِكرُ بَعضِ أشراطِ السَّاعةِ، وشَيءٍ من أهوالِها، وأحوالِ النَّاسِ فيها.

٩- خُتِمَت السُّورةُ بالحَديثِ عن سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ التي لا تتخلَّفُ، وهي أنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ؛ والحديثِ عن رِسالةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن مَوقِفِه من أعدائِه.

المقطع الأول

الآيات: ١-٥

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن
ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ
ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ
تُبۡصِرُونَ ٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ
كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾

معاني الكلمات

مُحْدَثٍ	أي: مُجَدَّدٍ إنزالُه.
لَاهِيَةً	أي: غافِلةً وساهيةً.
النَّجْوَى	أي: السِّرارَ والمُناجاةَ.
أَضْغَاثُ	أي: أخلاطٌ.

تفسير الآيات

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١)﴾.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

أي: قَرُبَ وقتُ حِسابِ النَّاسِ يومَ القيامةِ على أعمالِهم التي عَمِلوها في دُنياهم.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم في غفلةٍ في الدُّنيا عن اقترابِ حِسابِهم، وعمَّا يَفعَلُ اللهُ بهم في ذلك اليومِ، وقد أعرَضوا عن التفكُّرِ في الآخرةِ، وما ينتظرُهم فيها مِن الحسابِ، ولم يستعِدُّوا لها بالأعمالِ الصَّالحةِ!

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)﴾.

أي: ما يأتيهم مِن وَحيٍ من اللهِ حَديثِ النُّزولِ -لِتَذكيرِهم ومَوعِظتِهم- إلَّا استَمَعوه سَماعَ لَعِبٍ واستِهزاءٍ به، فلا يَعتَبِرونَ، ولا يتَّعظُونَ به.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: غارِقةً قُلوبُهم في اللَّهوِ والغَفلةِ عن القرآنِ، مُتشاغِلةً بدُنياها وشَهَواتِها عن التأمُّلِ والتفهُّمِ لِمَعانيه، فلا يتدبَّرونَ حِكَمَه، ولا يتفكَّرونَ فيما أودَعَ اللهُ فيه مِن الحُجَجِ والبراهينِ.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

أي: وبالَغَ مُشرِكو قُرَيشٍ في إخفاءِ المناجاةِ فيما بيْنَهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: هل هذا الذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ من اللهِ إليكم إلَّا إنسانٌ مِثلُكم في صُوَرِكم وخَلْقِكم، واحتياجِه للطعامِ والشَّرابِ وغَيرِ ذلك؟!

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفتَقبَلونَ مِن محمَّدٍ القُرآنَ، وتصَدِّقونَ به وتتَّبِعونَه، وأنتم تَعلَمونَ وتُدرِكونَ أنَّه سِحرٌ؟!

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)﴾.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكفَّارِ الذين يكذِّبونَه: ربِّي يعلَمُ كلَّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ سِرًّا كان أو جَهرًا، لا يخفَى عليه شَيءٌ ممَّا يُقالُ فيهما، وهو الذي أنزَل هذا القُرآنَ المُشتَمِلَ على خبَرِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، الذي لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمِثلِه إلَّا الذي يعلَمُ السرَّ في السَّمواتِ والأرضِ.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكلِّ قولٍ في السَّماءِ والأرضِ، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأحوالِنا وما في قُلوبنا، وبالصَّادِقِ والكاذِبِ منَّا.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥)﴾.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

أي: بل قال الكافِرونَ: القرآنُ أشياءُ مُختَلِطةٌ رآها محمَّدٌ في منامِه ولا حقيقةَ لها، بل هو كذِبٌ افتراه محمَّدٌ مِن قِبَلِ نفسِه، بل محمَّدٌ شاعِرٌ جاءكم بشِعرٍ، وزعم أنَّه مِن عندِ ربِّه!

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

أي: قال الكافرونَ: فلْيَأْتِنا محمَّدٌ بمُعجزةٍ حِسِّيَّةٍ تدُلُّ على صِدقِه، كما أيَدَّ اللهُ رُسُلَه السَّابقينَ بالمُعجِزاتِ؛ كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، ومعجزاتِ عيسى، وغيرِ ذلك من المعجزاتِ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، ولا يأتي بها إلَّا الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ذكَرَ تعالى هذا الاقترابَ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ للمُكلَّفينَ، فيكونُ أقرَبَ إلى تلافي الذُّنوبِ، والتحَرُّزِ عنها خوفًا من ذلك، فمَن عَلِمَ اقترابَ الساعةِ قَصُرَ أمَلُه، وطابت نفسُه بالتَّوبةِ، ولم يركَنْ إلى الدُّنيا، فكأنَّ ما كان لم يكُنْ إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قَريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ، وموتُ كلِّ إنسانٍ قِيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضًا قريبةٌ بالإضافةِ إلى ما مضَى من الزَّمانِ، فما بقِيَ مِن الدُّنيا أقلُّ مِمَّا مضَى.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ذلك ذَمٌّ للكُفَّارِ، وزَجرٌ لِغَيرِهم عن مِثلِه؛ لأنَّ الانتفاعَ بما يُسمَعُ لا يكونُ إلَّا بما يَرجِعُ إلى القَلبِ مِن تدَبُّرٍ وتفكُّرٍ، وإذا كانوا عندَ استماعِه لاعبينَ حَصَلوا على مجَرَّدِ الاستِماعِ الذي قد تُشارِكُ البهيمةُ فيه الإنسانَ!

المقطع الثاني

الآيات: ٦-١٠

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا
قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ
٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨
ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ
أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾

تفسير الآيات

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾.

أي: ما آمنَ قَبلَ كفَّارِ قُرَيشٍ أهلُ القُرى مِن الأُمَمِ الماضيةِ الذين اقتَرحوا على رسُلِهم الآياتِ ثمَّ كذَّبوا بها لَمَّا جاءتْهم، فأهلَكْنا تلك القُرى وجميعَ أهلِها، أفيُؤمِنُ كفَّارُ قُرَيشٍ إذا أتَتْهم مُعجِزةٌ ممَّا يقتَرِحون؟!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبلك -يا محمَّدُ- من الأنبياءِ لأُمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا رِجالًا مِن البَشَرِ مِثلَهم، لا مِن الملائكةِ، فنُوحي إليهم ما نريدُ، فلماذا أنكَروا إرسالَنا لك إليهم، وأنت رجلٌ كسائِرِ الرسُلِ الذين أُرسِلوا قَبلَك إلى أُمَمِهم؟!

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فاسألوا أهلَ العِلمِ بالكُتُبِ المنزَّلةِ مِن قبلُ إنْ كنتُم لا تعلمونَ أنَّ كلَّ الأنبياءِ مِنَ البَشَرِ؛ لِيُخبِروكم بما يَعلَمونَه مِن كَونِ جَميعِ الأنبياءِ بَشَرًا لا ملائكةً.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾.

أي: وما جعَلْنا الأنبياءَ أجسادًا لا يأكُلونَ الطَّعامَ، بل كانوا بشرًا مِثلَك يأكلونَ الطَّعامَ.

﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

أي: وما كان الأنبياءُ السَّابقونَ خالدينَ في الدُّنيا لا يموتونَ، بل كانوا بشرًا عاشُوا ثمَّ ماتوا، وإنَّما تميَّزوا عن النَّاس بما يأتيهم عن الله سُبحانَه مِن الوحيِ.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾.

أي: ثمَّ صدَقْنَا رسُلَنا ما وعَدْناهم من إهلاكِ أعدائِهم الكافرينَ المكَذِّبينَ، ونَصْرِهم عليهم، فأنجَينا أولئك الرسُلَ وأتباعَهم الذين آمَنوا بهم مِن أممِهم.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: وأهلَكْنا جميعَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، والإصرارِ على تكذيبِ رُسُلِ اللهِ، فأبَدْناهم، ومحَوْنا ذِكْرَهم.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

أي: لقد أنزَلْنا إليكم قرآنًا فيه تذكيرٌ لكم بما فيه صلاحُكم، وفيه شَرَفُكم وعِزُّكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا تَعقِلونَ أنَّ في القُرآنِ شَرَفَكم، وهدايتَكم إلى ما فيه صلاحُكم، فتُؤمِنوا به، وتتدبَّروه وتَعمَلوا بما فيه؟

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ عامٌّ في كلِّ مَسألةٍ مِن مَسائِلِ الدِّينِ -أصولِه وفُروعِه- إذا لم يكُنْ عندَ الإنسانِ عِلمٌ منها أن يسألَ مَن يَعلَمُها؛ ففيه الأمرُ بالتعَلُّمِ والسؤالِ لأهلِ العِلمِ، ولم يؤمَرْ بسُؤالِهم إلَّا لأنَّه يجِبُ عليهم التعليمُ والإجابةُ عمَّا عَلِموه.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ في تخصيصِ السُّؤالِ بأهلِ الذِّكرِ والعِلمِ نَهيٌ عن سؤالِ المعروفِ بالجَهلِ وعَدَمِ العلمِ، ونهيٌ له أن يتصَدَّى لذلك.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الآيةُ مِصداقُها ما وقع للمُؤمِنينَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فالذين تذَكَّروا بالقُرآنِ مِن الصَّحابةِ فمَن بَعدَهم حصل لهم مِن الرِّفعةِ والعُلُوِّ الباهِرِ، والصِّيتِ العَظيمِ، والشَّرَفِ على الملوكِ- ما هو أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحَدٍ، كما أنَّه معلومٌ ما حصل لِمَن لم يرفَعْ بهذا القرآنِ رأسًا، ولم يهتدِ به ويتزكَّ به، مِن المقتِ والضَّعَةِ، والتَّدسيةِ والشَّقاوة؛ فلا سبيلَ إلى سَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ إلَّا بالتذَكُّرِ بهذا الكِتابِ.

المقطع الثالث

الآيات: ١١-١٨

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١
فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ
مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ
١٥ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ
لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ
فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾

معاني الكلمات

قَصَمْنَا	أي: أهلَكْنا وكَسرْنا.
يَرْكُضُونَ	أي: يَفِرُّونَ، ويَهرُبونَ مُسرِعينَ.
مَا أُتْرِفْتُمْ	أي: نُعِّمْتُم وبَقيتُم في المُلكِ.
يَاوَيْلَنَا	الويلُ: الهلاكُ والعذابُ.
دَعْوَاهُمْ	أي: دُعاؤُهم، وقولُهم، وكلامُهم.
حَصِيدًا خَامِدِينَ	أي: هالكينَ لم تبقَ منهم بقيَّةٌ.
لَدُنَّا	أي: عندِنا.
فَيَدْمَغُهُ	أي: يُذهِبُه، ويُبطِلُه.
زَاهِقٌ	أي: زائلٌ، ذاهِبٌ، هَالِكٌ.

تفسير الآيات

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾.

أي: وكثيرٌ مِن القُرى الماضيةِ أهلَكْناها وأهلَها المُشرِكينَ؛ لكُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم رُسُلَه.

﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

أي: وأوجَدْنا بعدَ إهلاكِهم أُمَّةً أُخرى سِواهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)﴾.

أي: فلمَّا رأى هؤلاءِ الظَّالِمونَ عَذابَنا نازِلًا بهم ووجَدوا مسَّه، إذا هم يَهرُبونَ مِن قَريتِهم مُسرعِينَ.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾.

أي: لا تَرْكُضوا هاربِينَ مِن العذابِ، وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها وبُيوتِكم التي سَكَنْتُم فيها؛ لعلَّكم تُسألُونَ.

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾.

أي: قال أولئك الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العَذابُ مُعترِفينَ بذُنوبِهم نادِمينَ: يا وَيْلَنا! إنَّا كنَّا ظالمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا بالله، وتكذيبِنا رُسُلَه.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾.

أي: فما زال الكفَّارُ حينَ نزَل بهم العذابُ يُكرِّرونَ قولَهم: ﴿يا وَيلَنا إنَّا كُنَّا ظالمِينَ﴾، حتى أهلَكْناهم واستَأصَلْناهم، فجَعَلْناهم موتَى كالزَّرعِ الذي استُؤصِلَ، قد خَمَدت منهم الحَرَكاتُ، وسَكَنَت منهم الأصواتُ كما تُخمَدُ النَّارُ فتُطفَأُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُخاطَبونَ- أن تَستَمِرُّوا على تكذيبِ رَسولِكم فيَحِلَّ بكم مِثلُ ما حلَّ بأولئك القَومِ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦)﴾.

أي: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينَهما مِن المخلوقاتِ عَبَثًا وباطِلًا، بل خلَقْناها ليتفَكَّرَ النَّاسُ فيها، فيَستَدِلُّوا بها على عَظيمِ صِفاتِ خالِقِها، واستِحقاقِه للعبادةِ، فيَعلَموا أنَّ الذي دَبَّرَها وخَلَقَها لا يُشبِهُه شَيءٌ، وأنَّه لا تكونُ الألوهيَّةُ إلَّا له، ولا تصلُحُ العبادةُ لِشَيءٍ سِواه، وأنَّ القادِرَ على خَلقِها مع سَعَتِها وعِظَمِها قادِرٌ على إعادةِ الأجسادِ بعدَ مَوتِها؛ ليجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)﴾.

أي: لو أرَدْنا -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ المُحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْنا ذلك مِن عِندِنا، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

أي: ولكِنَّنا نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَذهَبُ ويَضمَحِلُّ، فلا نعمَلُ عَمَلًا يكونُ باطِلًا ولَعِبًا ولَهوًا.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

أي: ولكم العَذابُ والهَلاكُ -أيُّها المُشرِكونَ- بسَبَبِ ما تكذِبونَ وتفترونَ.

الفوائد التربوية

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ عَقَّب به ذِكرَ القَومِ المُهلَكينَ، والمقصودُ مِن ذلك إيقاظُ العُقولِ إلى الاستِدلالِ بما في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينهما مِن دقائِقِ المُناسَباتِ، وإعطاءِ كُلِّ مَخلوقٍ ما به قِوامُه، فإذا كانت تلك سُنَّةَ اللهِ في خَلقِ العوالِمِ ظَرفِها ومَظروفِها، استُدِلَّ بذلك على أنَّ تلك السُّنَّةَ لا تتخلَّفُ في ترتُّبِ المسَبَّباتِ على أسبابِها فيما يأتيه جِنسُ المكَلَّفينَ مِن الأعمالِ، فإذا ما لاحَ لهم تخَلُّفُ سَبَبٍ عن سَبَبِه، أيقَنوا أنَّه تخَلُّفٌ مُؤَقَّتٌ، فإذا عَلَّمَهم اللهُ على لسانِ شرائِعِه بأنَّه ادَّخَر الجَزاءَ الكامِلَ على الأعمالِ إلى يومٍ آخِرٍ؛ آمَنوا به، وإذا عَلَّمهم أنَّهم لا يفوتونَ ذلك بالموتِ، بل إنَّ لهم حياةً آخِرةً، وأنَّ اللهَ باعِثُهم بعد الموتِ؛ أيقنوا بها، وإذا عَلَّمَهم أنَّه رُبَّما عَجَّلَ لهم بعضَ الجزاءِ في الحياةِ الدُّنيا؛ أيقَنوا به؛ ولذلك كَثُرَ تَعقيبُ ذِكرِ نِظامِ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ بذِكرِ الجَزاءِ الآجِلِ والبَعثِ، وإهلاكِ بَعضِ الأُمَمِ الظَّالِمةِ، أو تعقيبُ ذِكرِ البَعثِ والجزاءِ الآجِلِ والعاجِلِ بذِكرِ نِظامِ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ.

٢- ينبغي للإنسانِ أنْ يَعرِفَ شُبَهَ المُخالِفينَ -التي يَدَّعونَها حُجَجًا- لِيَنقَضَّ عليهم منها فيُبطِلَها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

٣- قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: (كيف لا يَخشَى الكَذِبَ على اللهِ ورَسوله مَن يَحمِلُ كَلامَه على التَّأويلاتِ المُستَنكَرةِ والمجازاتِ المُستَكرَهةِ التي هي بالألغازِ والأحاجيّ أَولى منها بالبَيانِ والهِدايةِ؟! وهل يأمَنُ على نَفْسِه أن يكونَ مِمَّن قال اللهُ فيهم: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؟!). قال الحَسَنُ: (هي واللهِ لكُلِّ واصِفٍ كَذِبًا إلى يَومِ القيامةِ).

المقطع الرابع

الآيات: ١٩-٢٣

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ
عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ أَمِ
ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا
يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾

معاني الكلمات

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ	أي: لا يَعْيَونَ، ولا يَنقَطِعونَ عن العِبادةِ.
يَفْتُرُونَ	أي: يَضعُفونَ ويَسأَمونَ.
يُنْشِرُونَ	أي: يُحيُونَ الموتى.

تفسير الآيات

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ولله وَحدَه مُلكُ مَن في السَّمواتِ والأرضِ مِن الخَلقِ، وكُلُّهم عَبيدٌ له.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

أي: ومَن عِندَه مِنَ الملائِكةِ لا يتكَبَّرون عن عبادتِه وطاعتِه والتذَلُّلِ له، ولا يتعَبون من عبادتِه، ولا يَنقَطِعونَ عنها.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

أي: يُسبِّحونَ اللهَ ليلًا ونهارًا، لا يَضعُفُ نَشاطُهم عن تَسبيحِه في كلِّ وَقتٍ.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١)﴾.

أي: هل اتَّخَذ أولئك المُشرِكونَ مَعبوداتٍ مِن الأرضِ يُحْيونَ الأمواتَ؟ كلَّا، لا يَقدِرونَ على ذلك، فكيف جَعَلوهم لله أندادًا، وعَبَدوهم معه؟!

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

أي: لو كان في السَّمَواتِ والأرضِ مَعبوداتٌ تَستَحِقُّ العبادةَ غيرُ اللهِ، لَخَرِبَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، واختلَّ نظامُهما، وبطَل الانتفاعُ بما فيهما، وهلَك ما فيهما مِن الخَلقِ.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أي: فتنزَّه اللهُ ربُّ العَرشِ وتعالى عمَّا يَصِفُه به الواصِفونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ، ويَكذِبونَ عليه، كادِّعائِهم أنَّ له ولدًا وشَريكًا!

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾.

أي: لا سائلَ يَسألُ اللهَ تعالى عمَّا يفعلُ، فيقولُ له: لِمَ فعَلْتَ؟ ولِمَ لَمْ تفعَلْ؟ ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه بقَولٍ أو بفِعلٍ فيما يشاءُ فِعلَه بخَلقِه، وأمَّا خَلقُه فيَسألُهم عن أفعالِهم وأقوالِهم.

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ فكُلُّ المكَلَّفينَ في السَّماءِ والأرضِ هم عَبيدُ اللهِ تعالى، وهو الخالِقُ لهم، والمُنعِمُ عليهم بأصنافِ النِّعَمِ، فيَجِبُ على الكُلِّ طاعَتُه، والانقيادُ لحُكمِه.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: أنَّهم مُستَغرِقونَ في العبادةِ والتَّسبيحِ في جميعِ أوقاتِهم؛ فليس في أوقاتِهم وَقتٌ فارغٌ ولا خالٍ منها، وهم على كَثرتِهم بهذه الصِّفةِ، وفي هذا مِن بيانِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وجَلالةِ سُلطانِه، وكَمالِ عِلمِه وحِكمَتِه ما يُوجِبُ ألَّا يُعبَدَ إلَّا هو، ولا تُصرَفَ العبادةُ لِغيرِه.

٣- قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فعُلِمَ بذلك أنَّه لا صلاحَ للعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ مَعًا حتى تكونَ حَرَكاتُ أهلِها كُلُّها للهِ، وحَرَكاتُ الجَسَدِ تابِعةٌ لحركةِ القَلبِ وإرادتِه؛ فإن كانت حركَتُه وإرادتُه لله وحْدَه، فقد صلَحَ وصَلَحت حَرَكاتُ الجَسَدِ كُلِّه، وإن كانت حركةُ القَلبِ وإراداتُه لغيرِ اللهِ تعالى، فسَدَ وفسَدَت حَرَكاتُ الجَسَدِ بحَسَبِ فَسادِ حركةِ القلبِ، فكما أنَّ السَّمَواتِ والأرضَ لو كان فيهما إلهٌ غَيرُه سُبحانَه لفَسَدتا، فكذلك القَلبُ: إذا كان فيه مَعبودٌ غيرُ اللهِ فَسَد فَسادًا لا يُرجى صَلاحُه إلَّا بأن يُخرِجَ ذلك المعبودَ مِن قَلبِه، ويكونَ اللهُ وحْدَه إلهَه ومَعبودَه الذي يُحِبُّه ويَرجوه ويَخافُه، ويتوكَّلُ عليه ويُنيبُ إليه.

المقطع الخامس

الآيات: ٢٤-٢٩

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦
لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا
خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨
۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾

معاني الكلمات

مُشْفِقُونَ	أي: خائِفونَ حَذِرونَ.

تفسير الآيات

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً﴾.

أي: أم اتَّخَذ هؤلاء المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ يَزعُمونَ أنَّها تنفَعُ وتضُرُّ وتخلُقُ وتُحيي وتُميتُ؟

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.
أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: هاتوا دليلَكم على صِحَّةِ ما تَزعُمونَ أنَّ مع اللهِ آلِهةً أُخرى.

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾.
أي: هذا القُرآنُ الذي أُنزِلَ عليَّ، وهذه كتُبُ الأنبياءِ المتقَدِّمةُ -كالتَّوراةِ، والإنجيلِ- على خِلافِ ما تَزعُمونَ، فهل وجدْتُم في شَيءٍ منها اتخاذَ آلهةٍ مع اللهِ؟! أم كُلُّها ناطِقةٌ بالتَّوحيدِ آمِرةٌ به؟

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.
أي: بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه اللهُ؛ فهم مُعرِضونَ عنه، فلا يتفَكَّرونَ فيه، ولا يُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾.
أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ إلى أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا نُوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فوحِّدوني، وأخلِصُوا العِبادةَ لي.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)﴾.
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.
أي: وقال المُشرِكونَ: اتخذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له!

﴿سُبْحَانَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾.
أي: تنزيهًا لله أن تكونَ الملائِكةُ بَناتٍ له؛ فليس الأمرُ كما وَصَفوا، بل الملائِكةُ عِبادٌ لله، خاضِعونَ له، مُشَرَّفونَ مُقرَّبونَ عنده.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾.

أي: لا يتكلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم اللهُ بقولِه، ولا يقولونَ شيئًا لم يأذَنْ لهم به.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ يَعمَلونَ بما يأمُرُهم اللهُ به، ويطيعونَه ولا يُخالِفونَه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: يعلَمُ اللهُ ما سيَعمَلُه الملائِكةُ مِن أقوالٍ وأفعالٍ فيما يَستَقبِلونَه، ويَعلَمُ ما مضى مِمَّا عَمِلوه؛ فلا خُروجَ لهم عن عِلمِه، كما لا خُروجَ لهم عن أمْرِه وتَدبيرِه.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

أي: ولا يَشفَعُ الملائِكةُ إلَّا لِمَن ارتَضى اللهُ الشَّفاعةَ له.

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ لأجْلِ خَوفِهم مِن اللهِ حَذِرونَ مِن أن يعصُوه، فيَحِلَّ بهم غَضَبُه وعِقابُه.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾.

أي: ومَن يَقُلْ مِن الملائِكةِ -على سَبيلِ الفَرضِ: إنِّي إلهٌ معبودٌ من دونِ اللهِ؛ فسنُعاقِبُه بإدخالِه جهنَّمَ.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أي: كما نجزي مَن قال مِن الملائكةِ: إنّي إلهٌ مِن دونِ اللهِ -على فرضِ وقوعِه- نَجزي أيضًا كلَّ من ظلَمَ نفسَه بوَضْعِه العبادةَ في غيرِ مَوضِعها، فأشرك باللهِ وعبَدَ غيرَه.

الفوائد التربوية

١- لا يَنْبغي لعاقلٍ أنْ يتعرَّضَ لعلمِ ما لم يُعلِمْنا اللهُ ورسولُه، ويتضِحْ معقولُه ومنقولُه، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِه تعالَى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾.

٢- في قولِه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أنَّ كمالَ المخلوقِ في تحقيقِ عبوديتِه لله تعالى، وكلَّما ازداد العبدُ تحقيقًا للعبوديةِ ازداد كمالُه، وعلَتْ درجتُه، ومَن توهَّم أنَّ المخلوقَ يخرجُ عن العبوديةِ بوجهٍ مِن الوجوهِ، وأنَّ الخروجَ عنها أكملُ؛ فهو مِن أجهلِ الخلقِ وأضلِّهم.

٣- قال الله تعالى عن الملائكةِ: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ والصَّادِرُ عنهم إمَّا قَولٌ وإمَّا عمَلٌ؛ فالقَولُ لا يَسبِقونَه به، بل لا يقولونَ حتى يقولَ، ولا يَشفَعونَ إلَّا لِمَن ارتضَى، وعلينا أن نكونَ معه ومع رسُلِه هكذا؛ فلا نقولُ في الدِّينِ حتى يقولَ، ولا نتقدَّمُ بين يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، ولا نَعبُدُه إلَّا بما أمرَ، وأعلَى مِن هذا ألَّا نعمَلَ إلَّا بما أمَرَ، فلا تكونُ أعمالُنا إلَّا واجِبةً أو مُستَحَبَّةً.

المقطع السادس

الآيات: ٣٠-٣٣

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ
وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

معاني الكلمات

رَتْقًا	أي: مُصْمَتتيْنِ، أو: مُنسَدَّتينِ مُلتَئِمَتينِ.
فَفَتَقْنَاهُمَا	أي: صَدَعْناهما، وفَرَجْناهما.
رَوَاسِيَ	أي: جبالًا ثوابِتَ.
تَمِيدَ	أي: تميلَ وتتحَرَّكَ.
فِجَاجًا	أي: مَسالِكَ وطُرُقًا.
سُبُلًا	أي: طُرُقًا، جمعُ سبيلٍ.
فَلَكٍ	الفَلَكُ: مَدارُ النُّجومِ الذي يضُمُّها.

تفسير الآيات

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرِ الكُفَّارُ فيَعلَموا أنَّ السَّماءَ كانت مُصْمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ كانت مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَتْ؟!

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

أي: وخَلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ فيه حياةٌ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي إذا رأيتُك طابَتْ نَفسي، وقرَّتْ عيني، فأنبِئْني عن كُلِّ شَيءٍ، فقال: كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ)). أخرجه أحمد (٢٩٥).

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: أفلا يُؤمِنُ الذين كفَروا بما يُشاهِدونَه، فيَستَدِلُّوا به على وُجودِ الصَّانِعِ الفاعِلِ، المختارِ القادِرِ، ويُقِرُّوا باستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا؟

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابِتةً؛ لئلَّا تضطَرِبَ الأرضُ بهم.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

أي: وجعَلْنا فيها طُرُقًا واسِعةً سَهلةً؛ لِيَهتَدوا إلى السَّيرِ في الأرضِ، والوصولِ إلى مطالِبِهم مِن البلدانِ، ولِيَهتَدوا إلى ما فيها مِن دلائِلِ وحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرَتِه، وتفرُّدِه بأوصافِ الكَمالِ.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾.

أي: وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا للأرضِ مَحفوظًا من السُّقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ.

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

أي: وهم عن آياتِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وكَمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وصِفاتِه، واستِحقاقِه للعبادةِ وَحْدَه- مُعرِضُون عن التفكُّرِ والتدبُّرِ فيها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ، وَالْقَمَرَ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، وفيها دَلالاتٌ على عَظيمِ سُلطانِه، وأنَّ العبادةَ له دونَ كُلِّ ما سواه، ولِينتَفِعَ النَّاسُ بها في شُؤونِ دينِهم ودُنياهم.

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

أي: كلٌّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ في فلَكٍ دائرٍ، يجْرونَ بسُرعةٍ كالسَّابِحِ في الماءِ.

المقطع السابع

الآيات: ٣٤-٤٠

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ
نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا
رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ
وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

معاني الكلمات

مِنْ عَجَلٍ	أي: عَجُولًا.
فَتَبْهَتُهُمْ	أي: تَغشاهم فجأةً.

تفسير الآيات

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.

أي: وما خلَّدْنا -يا محمَّدُ- أحدًا مِن البَشَرِ قَبلَك في الدُّنيا؛ فنُخَلِّدَك فيها، ولا بُدَّ لك مِن أن تموتَ فيها كما مات مَن قَبْلَك.

﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

أي: فهل إذا متَّ -يا محمَّدُ- سيُخَلَّدُ المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن بَعدِك؟! كلَّا، بل سيموتونَ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

أي: كلُّ نَفسٍ مخلوقةٍ لا بدَّ أن تذوقَ ألمَ مُفارَقةِ جَسَدِها.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

أي: ونختَبِرُكم -أيُّها النَّاسُ- بالمصائِبِ والشِّدَّةِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم لِنَنظرَ صَبْرَكم وشُكرَكم.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلينا -أيُّها النَّاسُ- تُرَدُّونَ لا إلى غيرِنا، فنُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ، يَستهزِئونَ ويَستَخِفُّونَ بك.

﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾.

أي: يقولونَ إذا رأَوُا الرَّسولَ -استِنكارًا-: أهذا هو الذي يَعيبُ أصنامَكم التي تَعبُدونَها؟

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

أي: وهؤلاء المُستَهزِئونَ بالرَّسولِ يَكفُرونَ بذِكرِ الرَّحمنِ الذي يُنعِمُ عليهم!

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾.
﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾.
أي: طُبِع الإنسانُ ورُكِّبَ على العَجَلةِ.

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.
أي: سأُريكم -أيُّها المُستعجِلونَ ربَّهم بالعَذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، وحُكمي وقُدرتي على مَن كَفَرَ بي وعصاني؛ فلا تَستعجِلوا ربَّكم بالعذابِ!

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾.
أي: ويقولُ هؤلاء المُستعجِلونَ ربَّهم بالآياتِ والعَذابِ لمحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ به: متى يأتينا عَذابُ اللهِ إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدونَنا به منَ العذابِ؟

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩)﴾.
أي: لو يتيقَّنُ الكُفَّارُ المُستَعجِلونَ العَذابَ ماذا لهم من البَلاءِ حين تَلفحُ وجوهَهم النَّارُ، فلا يَستَطيعونَ في ذلك الوَقتِ أن يَكُفُّوا بأنفُسِهم النَّارَ عن وُجوهِهم ولا عن ظُهورِهم، ولا يَجِدونَ لهم ناصِرًا ينصُرُهم، ويُنجِيهم مِن عَذابِ اللهِ؛ لَما استعجَلوا العذابَ، ولَتابوا وآمَنوا باللهِ.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)﴾.
﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.
أي: بل تأتيهم النَّارُ فجأةً، فتصيبُهم بالذُّعْرِ والخوفِ والحيرةِ فلا يَدرونَ ما يصنعونَ!

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.
أي: فلا يَستطيعونَ دَفْعَ النَّارِ عن أنفُسِهم حين تبغَتُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ عنهم العَذابُ لِيَتوبُوا.

الفوائد التربوية

١- قَولُه تعالى: ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يَفرحَ بمَوتِ أحَدٍ؛ لأجلِ أمرٍ دُنيويٍّ يَنالُه بسَبَبِ مَوتِه؛ لأنَّه هو ليس مخلَّدًا بَعدَه.

٢- ممَّا يُعينُ على الزُّهدِ أن يتأمَّلَ الإنسانُ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها دارُ مَمَرٍّ، وليست دارَ مَقَرٍّ، وأنَّها لم تَبْقَ لأحدٍ مِن قَبْلِك، وما لم يَبقَ لأحدٍ مِن قبلِك لن يبقَى لك؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ يعني: لن يخَلَّدَ أحدٌ في هذه الدُّنيا، وكذلك يعلَمُ أنَّ هذه الدنيا دارُ تَنغيصٍ وكَدَرٍ، فما سُرَّ بها الإنسانُ يومًا إلَّا ساءَه الأمرُ في اليومِ الثَّاني، فإذا عَلِمَ حَقيقةَ الدُّنيا فإنَّه بعَقلِه وإيمانِه سوف يزهَدُ بها، ولا يُؤْثِرُها على الآخرة.

٣- قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الابتِلاءُ لا يتحقَّقُ إلَّا مع التَّكليفِ؛ فالآيةُ دالَّةٌ على حُصولِ التَّكليفِ، وتدُلُّ على أنَّه -سُبحانَه وتعالى- لم يقتَصِرْ بالمكَلَّفِ على ما أمَرَ ونهَى، وإن كان فيه صعوبةٌ، بل ابتلاه بأمرينِ: **أحدُهما:** ما سمَّاه خَيرًا، وهو نِعَمُ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ واللَّذَّةِ، والسُّرورِ والتَّمكينِ مِن المراداتِ. **والثَّاني:** ما سمَّاه شَرًّا، وهو المضارُّ الدُّنيويَّةُ مِن الفقرِ والآلامِ، وسائِرِ الشَّدائِدِ النَّازلةِ بالمكَلَّفينَ، فبَيَّنَ تعالى أنَّ العبدَ مع التَّكليفِ يتَرَدَّدُ بين هاتينِ الحالَتينِ؛ لكي يَشكُرَ على المِنَحِ، ويَصبِرَ في المِحَنِ، فيَعظُمَ ثَوابُه إذا قام بما يَلزَمُ.

المقطع الثامن

الآيات: ٤١-٤٧

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ
هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا
مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ
ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٤٦ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ
بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾

معاني الكلمات

فَحَاقَ	أي: أحاطَ.
يَكۡلَؤُكُم	أي: يَحفَظُكم، ويَحرُسُكم.
يُصۡحَبُونَ	أي: يُجارُونَ، ويُنصَرونَ.
أَطۡرَافِهَا	أي: جَوانِبِها، ونَواحيها.

الصُّمُّ	أي: جمعُ الأصمِّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّة السَّمع.
نَفْحَةٌ	أي: أدنَى شَيءٍ.
خَرْدَلٍ	الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ.

تفسير الآيات

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

أي: ولقد استهزأَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ برُسُلِهم الذين أرسَلْناهم مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- فاصبِرْ على استِهزاءِ الكافرينَ كما صبَرَ عليه غيرُك مِن الرُّسُلِ.

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أي: فنزلَ وأحاط بالكافِرينَ الذين سَخِروا مِنَ الرُّسُلِ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ، بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢)﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحرُسُكم ويَحفَظُكم باللَّيلِ والنَّهارِ مِن الرَّحمنِ؟

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: بل الكُفَّارُ مُعرِضونَ عن ذكرِ ربِّهم؛ جهلًا منهم، وسفهًا.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾.

أي: ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهةٌ غيرُنا تَحفظُهم مِن عَذابِنا إن أنزَلْناه بهم؟

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾.

أي: لا تَقدِرُ آلهتُهم المزعومةُ أن تَنصُرَ أنفُسَها لِضَعفِها، فكيف تنصُرُ عابديها، وتمنَعُهم مِن عذابِنا؟!

﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

أي: وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.

أي: ولكنَّ الذي أوجبَ استِمرارَهم على كُفرِهم وشِركِهم هو أنَّنا متَّعْنا مُشركي قُرَيشٍ وآباءَهم مِن قَبلِهم بالنِّعَمِ، وأطَلْنا أعمارَهم، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، فقَسَت قلوبُهم، واغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ حُجَجِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فحمَلَهم ذلك على الطُّغيانِ، والاستِمرارِ على باطِلِهم.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

أي: أوَلم يرَ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم؟!

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

أي: أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المُنتَصِرونَ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه المُؤمِنينَ؟! بل المُشرِكونَ هم المغلوبونَ الأخسَرونَ الأذَلُّونَ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥)﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ بالقُرآنِ الذي يُنزِلُه اللهُ علَيَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نفسي.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾.

أي: ولا يُصغي الكُفَّارُ إلى القُرآنِ، كأنَّهم صُمٌّ لا ينتَفِعونَ به حين يُخوَّفونَ بآياتِه.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)﴾.

أي: ولَئِنْ أصاب الكافرينَ المُستعجِلينَ بالعذابِ أقَلُّ شَيءٍ مِن عذابِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: ﴿يا ويلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ!

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: ونُقيمُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند حِسابِهم.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾.

أي: فلا يَظلِمُ اللهُ نفسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ سيُخَلِّصُ رَجُلًا من أُمَّتي على رُؤوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ، فيَنشُرُ عليه تِسعةً وتِسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصرِ، ثمَّ يقولُ: أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا؟ أظلَمَك كَتَبَتي الحافِظونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: أفلَك عُذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: بلى، إنَّ لك عندنا حَسَنةً، فإنَّه لا ظُلمَ عليك اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه، فيقولُ: احضُرْ وَزْنَك، فيقولُ: يا رَبِّ، ما هذه البِطاقةُ مع هذه السِّجِلَّات؟! فقال: إنَّك لا تُظلَمُ، فتُوضَعُ السِّجِلاتُ في كِفَّةٍ، والبِطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشت السِّجِلاتُ، وثَقُلَت البطاقةُ؛ فلا يَثقُلُ مع اسمِ اللهِ شَيءٌ)). أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) حديث حسن غريب.

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

أي: وإن كان الَّذي للعبدِ مِن عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئْنا بها لِتُوزنَ في الميزانِ.

﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

أي: وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكِتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، مُوصِلينَ للعامِلينَ جَزاءَها، ولن نَظلِمَهم شيئًا؛ فليس في الحِسابِ أحدٌ مِثلُنا.

الفوائد التربوية

قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾، أي: الأصمُّ لا يَسمَعُ صَوتًا؛ لأنَّ سَمْعَه قد فسَدَ وتعطَّل، وشَرْطُ السَّماعِ مَعَ الصَّوتِ أن يُوجَدَ محَلٌّ قابِلٌ لذلك، كذلك الوَحيُ سَبَبٌ لحياةِ القُلوبِ والأرواحِ، وللفِقهِ عن اللهِ، ولكِنْ إذا كان القَلبُ غَيرَ قابِلٍ لسَماعِ الهُدى، كان بالنِّسبةِ للهُدى والإيمانِ بمَنزلةِ الأصَمِّ بالنِّسبةِ إلى الأصواتِ.

المقطع التاسع

الآيات: ٤٨-٥٠

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ
أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

تفسير الآيات

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرّقُ به بينَ الحَقّ والباطِلِ.

﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وآتينا موسى وهارونَ التَّوراةَ نورًا في القَلبِ، مُضيئةً طَريقَ الحَقّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها أحكامَ دينِهم، وهي تذكيرٌ ومَوعِظةٌ للمُتَّقينَ الذين يمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتَنِبونَ نواهيَه.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)﴾.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾.

أي: آتيناهما التَّوراةَ ضِياءً وذِكرًا للمُتَّقينَ الذين يَخافونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهم أحدٌ مِن النَّاسِ، فيَترُكونَ المُحَرَّماتِ، ويقومونَ بالواجِباتِ، مُخلِصينَ لله، خائِفينَ مِن عذابِه.

﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

أي: وهم مِن يومِ القيامةِ وأهوالِه خائِفونَ حَذِرونَ.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾.

أي: وهذا القرآنُ ذِكرٌ يتذَكَّرُ ويتَّعِظُ به المُؤمِنونَ، كثيرُ الخيراتِ في الدنيا والآخِرةِ، أنزَلْناه

كما أنزَلْنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذِكرًا للمُتَّقينَ.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾.

أي: أفأنتم للقُرآنِ مُنكِرونَ نُزولَه من عندِ اللهِ وهو في غايةِ الظُّهورِ؟ وكيف تُنكِرونَ كَونَه مُنَزَّلًا مِن عِندِه سُبحانَه مع اعتِرافِكم بأنَّ التَّوراةَ مُنَزَّلةٌ مِن عندِه؟!

الفوائد التربوية

١- خَشيةُ اللَّهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يخشى اللَّهَ سرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا، فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللَّهَ في العلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللَّهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدح اللهُ مَن يخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، وقال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فوصفَ القُرآنَ بوَصفَينِ جليلَينِ:

الأوَّلُ: كَونُه ذِكرًا يُتذَكَّرُ به جميعُ المطالِبِ؛ مِن معرفةِ اللهِ بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ومِن صفاتِ الرُّسُلِ والأولياءِ وأحوالِهم، ومِن أحكامِ الشَّرعِ مِن العِباداتِ والمُعامَلاتِ وغيرِها، ومِن أحكامِ الجَزاءِ والجَنَّةِ والنَّارِ، فيُتذَكَّرُ به المسائِلُ والدَّلائِلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، وسَمَّاه ذِكرًا؛ لأنَّه يَذكُرُ ما رَكَزَه اللهُ في العُقولِ والفِطَرِ؛ من التَّصديقِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، والأمرِ بالحَسَنِ عَقلًا، والنَّهيِ عن القَبيحِ عَقلًا.

والثَّاني: كَونُه مُبارَكًا وهذا يقتضي كَثرةَ خَيراتِه، ونماءَها وزيادتَها، ولا شَيءَ أعظَمُ بَرَكةً مِن هذا القرآنِ؛ فإنَّ كُلَّ خيرٍ ونعمةٍ، وزيادةٍ دينيَّةٍ أو دُنيويَّةٍ أو أُخرويَّةٍ؛ فإنَّها بسَبَبِه وأثَرٌ عن العَمَلِ به، فإذا كان ذِكرًا مُبارَكًا، وجَبَ تَلقِّيه بالقَبولِ والانقيادِ والتَّسليمِ، وشُكرِ اللهِ على هذه المِنحةِ الجَليلةِ، والقيامِ بها، واستِخراجِ بَركتِه بتعَلُّمِ ألفاظِه ومَعانيه.

المقطع العاشر

الآيات: ٥١-٦١

﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ
ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا
إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ
فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ ﴾

معاني الكلمات

رُشْدَهُ	أي: هُداه، والرُّشْدُ.
التَّمَاثِيلُ	أي: جمعُ تِمثالٍ، وهي الأصنامُ.
عَاكِفُونَ	أي: مُقيمونَ.
فَطَرَهُنَّ	أي: خَلَقهنَّ، وابتدأهنَّ.
لَأَكِيدَنَّ	أي: لأمكُرَنَّ.
جُذَاذًا	أي: فُتاتًا وحُطامًا.

تفسير الآيات

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلُ، ووفَّقْناه للحَقِّ، وأنقَذْناه مِن بينِ قَومِه وأهلِ بَيتِه، مِن عِبادةِ الأوثانِ.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

أي: وآتَيناه رُشدًا عَظيمًا على عِلمٍ مِنَّا بأنَّه أهلٌ لذلك الرُّشدِ.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢)﴾.

أي: إذ قال إبراهيمُ لأبيه آزَرَ وقَومِه المُشرِكينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنَّكم مثَّلْتُموها ونحَتُّموها بأيديكم على صُوَرِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتونَ؟!

﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣)﴾.

أي: قال المُشرِكونَ لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَ هذه الأوثانَ؛ فنحن نعبُدُها مِثلَهم!

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤)﴾.

أي: قال إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم جميعًا في ذهابٍ عن سبيلِ الحَقِّ واضحٍ بيِّنٍ؛ بعِبادتِكم جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ!

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥)﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: أجِئْتَنا -يا إبراهيمُ- بالحَقِّ المُطابِقِ للواقِعِ فيما تقولُ، أمْ أنَّ كلامَك كلامُ مازحٍ هازلٍ مُستَهزِئٍ؟

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)﴾.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل جِئتُكم بالحَقِّ لا باللَّعِبِ؛ فرَبُّكم رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي أوجَدَهنَّ وأبدَعَهنَّ وما فيهنَّ مِن جَميعِ المخلوقاتِ.

﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: وأنا على ذلك الأمرِ البيِّنِ مِن الشَّاهِدينَ بعِلمٍ وحُجَّةٍ.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ (٥٧)﴾.

أي: قال إبراهيمُ: وواللهِ لأحتالَنَّ على أصنامِكم فأُلحِقُ بها الضَّرَرَ بعد أن تَنصَرِفوا عنها.

﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ (٥٨)﴾.

أي: فكسَّر إبراهيمُ الأصنامَ، وجعَلَها قِطَعًا مُهَشَّمةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا عِندَهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم، فيتبيَّنَ لهم عجزُه!

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩)﴾.

أي: فلمَّا رأى المُشرِكونَ حُطامَ أصنامِهم قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهتِنا؟ إنَّه لَمِنَ الظَّالمينَ بصَنيعِه هذا؛ حيثُ فعَل بها ما لا ينبغي له فِعلُه، ووضَعَ الإهانةَ في غيرِ مَوضِعِها؛ فإنَّ الآلهةَ حَقُّها الإكرامُ، لا الإهانةُ والانتِقامُ!!

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ (٦٠)﴾.

أي: قالوا: سَمِعْنا شابًّا يذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمِّ يُسَمَّى إبراهيمَ، ومَنْ هذا شأنُه لا بدَّ أن يكونَ هو الذي كَسَّرَها.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ (٦١)﴾.

أي: قال قومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبَعضٍ: فأحضِروا إبراهيمَ على مرأًى مِن النَّاسِ؛ لعلَّهم يَشهَدونَ عُقوبَتَنا له.

الفوائد التربوية

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فيه أنَّ الباطِلَ لا يصيرُ حَقًّا بكَثرةِ المُتمَسِّكينَ به.

المقطع الحادي عشر

الآيات: ٦٢-٧٠

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ
أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ
يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

معاني الكلمات

نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ	أي: رجَعوا عن الاعترافِ بالحقّ إلى الباطلِ.
أُفٍّ	هو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ.

تفسير الآيات

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢)﴾.

أي: فلمَّا أُحضِرَ إبراهيمُ قال له قَومُه: أأنت الذي حطَّمتَ أصنامَنا التي نَعبُدُها يا إبراهيمُ؟

﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ (٦٣)﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: بل الذي فعَل ذلك هذا الصَّنمُ الكبيرُ، فاسألوا الأصنامَ المكَسَّرة والصَّنمَ الكبيرَ الذي لم يُكَسَّرْ؛ لِيُخبِروكم بمن حطَّمَها إن كانوا يَستطيعونَ الكلامَ!

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السَّلامُ قطُّ إلَّا ثَلاثَ كَذِباتٍ: ثِنتينِ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ...)) الحديث. أخرجه مسلم (٢٣٧١).

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٦٤)﴾.

أي: فرَجَعوا إلى أنفسِهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: ﴿إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ﴾.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾.

أي: ثم عادُوا إلَى جهلِهم وعِنادِهم، ورَجَعوا عن الاعترافِ بالحقِّ إلى الباطلِ، وإلى المكابرةِ والانتصارِ للأصنامِ، فقالوا: أنت تعلمُ أنَّ هؤلاءِ الأصنامَ لا تنطِقُ، فكيف تأمرُنا بسؤالِهم، ما تريدُ إلَّا التَّنَصُّلَ مِن جَريمَتِك!

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ (٦٦)﴾.

أي: قال إبراهيمُ مُوبِّخًا لِقَومِه ومُنكِرًا عليهم: أفتَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُكم شيئًا فتَرجونَها، ولا تَضُرُّكم شيئًا فتَخشَونَها؟ وقد عَلِمتُم أنَّها لم تمنَعْ نَفسَها مِمَّن أرادها بسوءٍ، ولا تقدِرُ أن تنطِقَ إن سُئِلَت عمَّن يأتيها بسوءٍ فتُخبِرَ به، فلِمَ تَعبُدونَ ما كان هكذا؟!

﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (٦٧)﴾.

﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: قُبْحًا لكم ولأصنامِكم، وما أخسَّكم أنتم وما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ!

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفليست لكم عُقولٌ تُدرِكونَ بها قُبحَ ما تفعَلونَ مِن عبادتِكم أصنامًا لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ولا تستَحِقُّ العبادةَ؛ فتَترُكوا عبادتَها، وتَعبُدوا اللهَ الذي بِيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ؟!

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (٦٨)﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ انتِقامًا لأصنامِكم المحطَّمةِ إنْ كنتُم لها ناصرينَ.

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (٦٩)﴾.

أي: فأوقَدوا له نارًا لِيَحرِقوه، فلمَّا ألقَوا إبراهيمَ فيها قُلْنا لها: يا نارُ، كوني بردًا وسلامًا على إبراهيمَ. فأنجاه اللهُ منها، لم يَنَلْه فيها أذًى، ولا أحسَّ بمكروهٍ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ((حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣])). أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

وعن أُمِّ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر بقتلِ الوَزَغِ، وقال: كان يَنفُخُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ)). أخرجه البخاري (٣١٨٠) متفق عليه.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ (٧٠)﴾.

أي: وأراد المُشرِكونَ أن يَكيدوا بإبراهيمَ فخاب سَعيُهم، ولم يحصُلْ لهم مُرادُهم، وجعَلَهم اللهُ هم المغلوبينَ الهالكينَ.

الفوائد التربوية

إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُلقيَ في النَّارِ، والنَّارُ حارَّةٌ مُهلِكةٌ، فقال اللهُ لها: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، فكانت بَردًا وسلامًا عليه، فلم يَهلِكْ بها، ولم تَضُرَّه، فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبهذا نَعرِفُ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أن يعتَمِدَ على الأسبابِ الحِسّيَّةِ الظَّاهِرةِ، بل يعتَمِدُ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويفعَلُ الأسبابَ التي أذِنَ اللهُ تعالى فيها.

المقطع الثاني عشر

الآيات: ٧١-٧٥

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟
لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي
كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي
رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾

معاني الكلمات

نَافِلَةً	أي: زيادةً وفضلًا.

تفسير الآيات

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١)﴾.

أي: ونجّينا إبراهيمَ ولوطًا مِن أعدائِهما الكافِرينَ، فأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢)﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

أي: وأعْطَينا إبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وأعْطَيناه حَفيدَه يَعقوبَ بنَ إسحاقَ زيادةً، وفَضلًا منَّا.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

أي: وكُلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلْنا طائِعينَ لله، مُجتَنِبينَ محارِمَ اللهِ.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

أي: وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أئمَّةً يَقتَدي بهم النَّاسُ في طاعةِ اللهِ، ويَدْعونَ النَّاسَ بأمْرِنا إلى عبادةِ اللهِ، واتِّباعِ أمْرِه، واجتنابِ نَهْيِه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾.

أي: وأوحَينا إلى إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أن يفعَلوا هم وقَومُهم الطَّاعاتِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ.

﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

أي: وكانوا لنا طائِعينَ بإخلاصٍ وذُلٍّ وخُضوعٍ وخُشوعٍ، يَفعَلونَ ما يأمُرونَ النَّاسَ به، ويجتَنِبونَ ما يَنهونَهم عنه.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ (٧٤)﴾.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي: وآتَينا لوطًا النبُوَّةَ، وآتيناه عِلمًا عَظيمًا في شريعتِه، وفَهمًا ومعرفةً بأمرِ دينِه، وما يقَعُ به الحُكمُ بين الخُصومِ.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾.

أي: ونجَّينا لوطًا مِن أهلِ القَريةِ الذين كانوا يفعَلونَ الأفعالَ الشَّنيعةَ القبيحةَ؛ كالكُفرِ، وإتيانِ الذُّكورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجْناه منها، ولم يُصِبْه ما أصابَهم مِن العذابِ والهلاكِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾.

أي: وذلك لأنَّهم كانوا أصحابَ عملٍ سَيِّئٍ، خارجينَ عن طاعةِ اللهِ.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٧٥)﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾.

أي: وأدخَلْنا لوطًا في رَحمَتِنا بإنجائِنا له مِن عذابِ قَومِه في الدُّنيا، وبإدخالِه الجنَّةَ في الآخِرةِ.

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكَبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ. فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها)). أخرجه مسلم (٢٨٤٧).

﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: أدخَلْناه في رَحمتِنا؛ لأنَّه من الأنبياءِ الطَّائعينَ للهِ، العامِلينَ بوَحيِ اللهِ، المُستَقيمينَ على أمرِ اللهِ ونَهْيِه.

الفوائد التربوية

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ هذا مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه؛ أن يكونَ إمامًا يَهتدي به المُهتَدونَ، ويمشي خَلفَه السَّالِكونَ، وذلك لَمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِ الله يُوقِنونَ.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أنَّ مَن صلَحَ لِيَكون قُدوةً في دينِ اللهِ، فالهِدايةُ مَحتومةٌ عليه، مأمورٌ هو بها مِن جهةِ الله، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقَلَ عنها، وأوَّلُ ذلك أن يهتديَ بنَفْسِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ بهُداهُ أعَمُّ، والنُّفوسَ إلى الاقتداءِ بالمَهْدِيِّ أمْيَلُ، وهذا الهَدْيُ هو تزكيةُ نُفوسِ النَّاسِ، وإصلاحُها، وبثُّ الإيمانِ، ويشمَلُ هذا شؤونَ الإيمانِ وشُعَبَه وآدابَه.

المقطع الثالث عشر

الآيات: ٧٦-٧٧

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

معاني الكلمات

الْكَرْبِ	أي: الغمِّ الشَّديدِ.

تفسير الآيات

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦)﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نوحًا حينَ دعا ربَّه -مِن قَبلِ إبراهيمَ ولوطٍ- أن يَنصُرَه اللهُ على قَومِه الكافرينَ، وأن يُهلِكَهم.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

أي: فاستجَبْنا لنوحٍ دُعاءَه، فأغرَقْنا قَومَه الكافرينَ، ونجَّيناه مع أهلِه المؤمنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٖ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

أي: ونجَّينا نوحًا وحمَيناه مِن قَومِه الذين كذَّبوا بحُجَجِنا الدَّالَّةِ على رِسالتِه، فلا ينالونَه بسوءٍ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: نصَرْنا نوحًا، وأهلَكْنا قَومَه؛ لأنَّهم كانوا قومًا يُسيئُونَ أعمالَهم بالشِّركِ والكُفرِ، وتَكذيبِ الرَّسولِ، ومَعصيةِ اللهِ، فأغرَقْناهم كُلَّهم؛ كبيرَهم وصَغيرَهم.

المقطع الرابع عشر

الآيات: ٧٨-٨٠

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ
وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ
وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ
صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾

معاني الكلمات

الْحَرْثِ	أي: الزَّرعِ، أو البُستانِ.
نَفَشَتْ	أي: رعَتْ لَيلًا.
لَبُوسٍ	أي: الدُّروعِ.
لِتُحْصِنَكُمْ	أي: لِتَمنَعَكم وتَحميَكم.
بَأْسِكُمْ	أي: حَرْبِكم.

تفسير الآيات

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ (٧٨)﴾.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- خبَرَ داودَ وسُلَيمانَ حينَ يَحكُمانِ في شأنِ الزَّرعِ أو الغَرسِ الذي انتَشَرَت فيه غَنَمُ قَومٍ آخرينَ في اللَّيلِ، فرَعَت في البُستانِ وأكَلَت ما في أشجارِه.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾.

أي: وكنا لحُكمِ داودَ وسُلَيمانَ والمُتحاكِمين إليهما عالِمِينَ لا يخفَى علينا شيءٌ.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩)﴾.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

أي: ففهَّمْنا تلك القضيَّةَ سُلَيمانَ.

﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أي: وكلًّا مِن داودَ وسُلَيمانَ آتَينا نُبُوَّةً، وعِلمًا بدينِ اللهِ وأحكامِه.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أي: وذلَّلْنا مع داودَ الجِبالَ والطَّيرَ يُسَبِّحْنَ بمِثلِ تَسبيحِه إذا سَبَّحَ؛ مُعجِزةً له، وكنَّا فاعلينَ ذلك.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾.

أي: وعلَّمْنا داودَ كيفيَّةَ صِناعةِ الدُّروعِ لكم؛ لِتَقيَكم في القتالِ مِن سلاحِ أعدائِكم.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها النَّاسُ- شاكِرو اللهِ على تيسيرِه لكم نِعمةَ الدُّروعِ؟

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ في هذا تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أفضَلُ الكَمالاتِ وأعظَمُها؛ وذلك لأنَّ الله تعالى قَدَّمَ ذِكرَه هاهنا على سائِرِ النِّعَمِ الجليلةِ، مِثلُ: تَسخيرِ الجِبالِ والطيرِ، والريحِ والجِنّ، وإذا كان العِلمُ مُقَدَّمًا على أمثالِ هذه الأشياءِ، فما ظَنُّك بغَيرِها؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ العَمَلَ والمِهنةَ ليستا نَقصًا؛ لأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا يُمارِسونَها، والآيةُ أصلٌ في اتِّخاذِ الصَّنائِعِ والأسبابِ، وهو قَولُ أهل العُقولِ والألبابِ، لا قَولُ الجَهَلةِ الأغبياءِ القائلينَ بأنَّ ذلك إنما شُرِعَ للضُّعَفاءِ؛ فالسَّبَبُ سُنَّةُ اللهِ في خَلقِه، فمَن طعَنَ في ذلك فقد طَعَن في الكِتابِ والسُّنَّة، ونَسَب مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعفِ وعَدَمِ المُنَّةِ، فالصَّنعةُ يَكُفُّ بها الإنسانُ نَفسَه عن النَّاسِ، ويَدفَعُ بها عن نَفسِه الضَّرَرَ والباسَ.

المقطع الخامس عشر

الآيات: ٨١-٨٢

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا
وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ
عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

معاني الكلمات

عَاصِفَةً	أي: شَديدةَ الهُبوبِ.

تفسير الآيات

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١)﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾.

أي: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ، والحالُ أنَّها شديدةُ الهُبوبِ.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

أي: تجري الريحُ بأمرِ سُلَيمانَ طائِعةً له، فتعودُ إلى الأرضِ التي بارك اللهُ فيها.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾.

أي: وكُنَّا بجَميعِ الأشياءِ مِن أمرِ سُلَيمانَ وغَيرِه عالِمِينَ، لا يخفَى علينا شَيءٌ، عالِمِينَ بتَدبيرِه، ومِن ذلك أنَّنا وضَعْنا هذا التَّخصيصَ في المحَلِّ الذي يليقُ به مِن الأماكِنِ والأناسيِّ.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ مِن الشَّياطينِ مَن يغوصونَ له في البَحرِ؛ لِيَستخرِجوا اللآلِئَ والجواهِرَ وغيرَ ذلك.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾.

أي: ويعمَلُ الشَّياطينُ لِسُلَيمانَ أعمالًا أخرى غيرَ الغَوصِ؛ كعملِ المحاريبِ والتَّماثيلِ، والجِفانِ والقُدورِ الرَّاسياتِ.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾.

أي: وكُنَّا للشَّياطينِ الذين يَعمَلونَ لسُلَيمانَ حافِظِينَ، فلا يتمَرَّدونَ على طاعتِه، أو يَزيغونَ عن أمْرِه، أو يُبَدِّلونَ أو يُغَيِّرونَ، أو يُوجَدُ منهم فَسادٌ فيما هم مُسَخَّرونَ فيه، ولا يُؤذُونَ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ، ولا يتعَرَّضونَ بسُوءٍ لأحدٍ مِنَ النَّاسِ.

المقطع السادس عشر

الآيات: ٨٣-٨٤

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

تفسير الآيات

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- أيوبَ حين نادى ربَّه بأنِّي أصابني الضَّرَرُ والبلاءُ، وأنت أرحَمُ من يَرحَمُ، فارحَمْني بكَشفِ ضُرِّي.

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الصالحونَ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبتلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه، فإنْ كان في دِينِه صَلابةٌ زيدَ في بلائِه، وإن كان في دِينِه رِقَّةٌ خُفِّفَ عنه، وما يزالُ البلاءُ بالعَبدِ حتى يمشيَ على ظَهرِ الأرضِ ليس عليه خَطيئةٌ)). أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) حسن صحيح.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾.

أي: فاستجَبْنا دُعاءَ أيوبَ، فأزَلْنا ما حلَّ به مِن ضَرَرٍ وبَلاءٍ.

﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾.

أي: وآتَينا أيوبَ أهلَه الذين فقدَهم، ورَزَقْناه معهم آخرينَ مِثلَ عَدَدِهم زيادةً على ذلك.

﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾.

أي: ردَدْنا لأيوبَ أهلَه ومِثلَهم معهم؛ رحمةً منَّا به.

﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾.

أي: وتذكيرًا للذين يَعبُدونَ اللهَ؛ لِيَعتبِروا بقصةِ أيوبَ، ويَصبِروا كما صبَرَ.

الفوائد التربوية

١- قال تعالى عن أيوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا من بابِ حُسْنِ الأدَبِ في السُّؤالِ والدُّعاءِ، فقولُ القائِلِ لِمَن يُعَظِّمُه ويَرغَبُ إليه: أنا جائِعٌ، أنا مريضٌ- حُسْنُ أدبٍ في السُّؤالِ، وإن كان في قَولِه: أطعِمْني وداوِني ونحوِ ذلك ممَّا هو بصيغةِ الطَّلَبِ- طَلَبٌ جازِمٌ مِن المَسؤولِ؛ فذاك فيه إظهارُ حالِه، وإخبارُه على وَجهِ الذُّلِّ والافتقارِ المتضَمِّنِ لسُؤالِ الحالِ، وهذا فيه الرَّغبةُ التامَّةُ والسؤالُ المحضُ بصيغةِ الطَّلَبِ.

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ جَمَعَ أيوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا الدُّعاءِ بينَ: حقيقةِ التَّوحيدِ، وإظهارِ الفَقرِ والفاقةِ إلى رَبِّه، ووجودِ طَعْمِ المحبةِ في المُتَمَلَّقِ له، والإقرارِ له بصِفةِ الرَّحمةِ، وأنَّه أرحَمُ الرَّاحمينَ، والتوسُّلِ إليه بصفاتِه سُبحانَه، وشِدَّةِ حاجتِه، وهو فَقرُه، ومتى وَجَدَ المُبتلَى هذا كُشِفَ عنه بَلواه.

الفوائد التربوية

٣- قال العُلَماءُ: ولم يكُنْ قَولُ أيوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾الضُّرُّ جَزَعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، بل كان ذلك دُعاءً منه، والجَزَعُ في الشكوى إلى الخَلقِ لا إلى اللهِ تعالى، والدُّعاءُ لا يُنافي الرِّضا، ويَعقوبُ عليه السَّلامُ وعَدَ بالصَّبرِ الجَميلِ، فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣]، والنبيُّ إذا وعَدَ لا يُخلِفُ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]؛ فالشَّكوى إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ لا تُنافي الصَّبرَ، وإنَّما ينافي الصَّبرَ شَكوى اللهِ.

٤- قولُه تعالى: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّه تعالى فَعَلَ ذلك لكي يُتفكَّرَ فيه، فيكونَ داعيةً للعابدينَ في الصبرِ والاحتسابِ، فإنهم إذا ذكروا بلاءَ أيوبَ وصبرَه عليه ومحنتَه له، وهو أفضلُ أهلِ زمانِه، وطَّنوا أنفسَهم على الصبرِ على شدائدِ الدنيا نحوَ ما فعَلَ أيوبُ، فيكونُ هذا تنبيهًا لهم على إدامةِ العبادةِ، واحتمالِ الضررِ.

المقطع السابع عشر

الآيات: ٨٥-٨٨

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ
فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ
لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

معاني الكلمات

نَقْدِرَ عَلَيْهِ	أي: نُضَيِّقَ عليه.

تفسير الآيات

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ، وإدريسَ، وذا الكِفْلِ.

﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: كلٌّ منهم مِن الصَّابرينَ على الابتلاءاتِ، وعلى فِعلِ الطَّاعاتِ، واجتنابِ السَّيِّئاتِ.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾.

أي: وأدخَلْنا إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ في رَحمتِنا.

﴿إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: أدخَلْناهم في رَحمَتِنا؛ لأنَّهم مِنَ الكامِلينَ في الصَّلاحِ، الجامِعينَ لِخِصالِ الخَيرِ، المُطيعينَ لله.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يُونُسَ صاحِبَ الحُوتِ حينَ ذَهَب غاضِبًا على قومِه مِن أجْلِ رَبِّه؛ لِكُفرِهم به، وعِصيانِهم له، بعدَما دعاهم إليه.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

أي: فظَنَّ يُونُسُ أنَّنا لن نُعاقِبَه هذه العُقوبةَ، فنُضَيِّقَ عليه بحَبسِه في بَطنِ الحُوتِ.

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أي: فنادَى يونُسُ رَبَّه وهو في الظُّلُماتِ فقال: لا إلهَ إلَّا أنتَ، أُنَزِّهُك عن جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، إنِّي كُنتُ ظالِمًا لِنَفسي بمَعصِيتِك حينَ خَرَجْتُ مِن قَومي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾.

أي: فأجَبْنا دُعاءَ يُونُسَ، ونَجَّيْناه مِن الغَمِّ والشِّدَّةِ التي وقَعَ فيها، فأخرَجْناه مِن بَطنِ الحُوتِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وكما نجَّيْنا يونُسَ مِن غَمِّه حين دَعانا، كذلك نُنْجِي المؤمِنينَ مِن غُمومِهم وكُرَبِهم إذا دَعَونا بإخلاصٍ.

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دَعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا وهو في بَطنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فإنَّه لم يَدْعُ بها رجُلٌ مُسلِمٌ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا استجابَ اللهُ له)). أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) [حكم الألباني]: صحيح

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دَعوةُ ذي النُّونِ فيها مِن كَمالِ التَّوحيدِ والتَّنزيهِ للرَّبِّ تعالى، واعترافِ العَبدِ بظُلمِه وذَنبِه، ما هو مِن أبلَغِ أدويةِ الكَربِ والهَمِّ والغَمِّ، وأبلَغِ الوسائِلِ إلى اللهِ سُبحانَه في قَضاءِ الحوائِجِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ والتَّنزيهَ يتضَمَّنانِ إثباتَ كُلِّ كَمالٍ لله، وسَلْبَ كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وتَمثيلٍ عنه، والاعترافَ بالظُّلمِ يتضَمَّنُ إيمانَ العَبدِ بالشَّرعِ والثَّوابِ والعِقابِ، ويُوجِبُ انكِسارَه ورُجوعَه إلى اللهِ، واستقالتَه عَثرتَه، والاعترافَ بعُبوديَّتِه، وافتقارَه إلى رَبِّه، فهاهنا أربعةُ أمورٍ قد وقع التوسُّلُ بها: التَّوحيدُ، والتَّنزيهُ، والعُبوديَّةُ، والاعتِرافُ.

الفوائد التربوية

٢- في قَولِه تعالى عن يونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّهليلَ والتَّسبيحَ يَجْليانِ الغُمومَ، ويُنجِيانِ مِن الكَرْبِ والمصائِبِ، فحقيقٌ على مَن آمَنَ بكتابِ اللهِ أنْ يجعَلَها ملجأً في شَدائِدِه، ومَطيَّةً في رَخائِه؛ ثِقةً بما وَعدَ اللهُ المؤمنينَ مِن إلحاقِهم بذي النُّونِ في ذلك؛ حيث يقولُ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ترغيبٌ للمُؤمِنينَ في الإيمانِ؛ بالثَّباتِ عليه، والازديادِ منه؛ إذْ عَلِموا نجاةَ المُؤمِنينَ السَّابِقينَ. وهو وَعدٌ وبِشارةٌ لكُلِّ مُؤمِنٍ وقَعَ في شِدَّةٍ وغَمٍّ أنَّ اللهَ تعالى سيُنجيه منها، ويَكشِفُ عنه ويخَفِّفُ؛ لإيمانِه، كما فعَلَ بيُونسَ عليه السَّلامُ.

المقطع الثامن عشر

الآيات: ٨٩-٩٠

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

معاني الكلمات

رَغَبًا وَرَهَبًا	أي: راغِبينَ في الجنَّةِ، وخائِفينَ مِن النَّارِ.

تفسير الآيات

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩).

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- زكريَّا حينَ نادى ربَّه، فقال: رَبِّ، لا تترُكْني وَحيدًا بلا وَلَدٍ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

أي: فارزُقْني وارِثًا مِن نَسلي يَقومُ بالدِّينِ مِن بَعدي، وأنت خيرُ الباقينَ بعدَ مَوتِ العبادِ، وخَيرُ مَن يخلُفُني بخَيرٍ، وأنا أعلمُ أنَّك لن تُضَيِّعَ دينَك، ولكِنْ لا تَقطَعْ فَضيلةَ القيامِ بأمرِ الدِّينِ وهِبةِ العِلمِ والحِكمةِ عَن عَقِبي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾.

أي: فاستَجَبْنا لزكريَّا دُعاءَه، ورزَقْناه ولَدًا اسمُه يحيى.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾.

أي: وأصلَحْنا لزكريَّا امرأتَه العقيمَ، فجعَلْناها وَلودًا صالِحةً للحَملِ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

أي: إنَّ زكريَّا وزَوجَه ويحيَى كانوا يُبادِرونَ إلى فِعلِ الطَّاعاتِ، وما يُقرِّبُهم إلينا.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

أي: وكانوا يَدْعُوننا؛ رَغبةً منهم في ثوابِ اللهِ ورَحمتِه، ورَهبةً مِن عذابِه وغَضَبِه.

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

أي: وكانوا لنا مُتواضِعينَ خاضِعينَ، مُتذَلِّلينَ لا يَستكبِرونَ عن عبادتِنا ودُعائِنا، قد انكَسَرت قلوبُهم لله، وسكَنَت عن الالتِفاتِ إلى غيرِه.

الفوائد التربوية

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بَعدَما كانت عاقِرًا، لا يَصلُحُ رَحِمُها للوِلادةِ، فأصلَحَ اللهُ رَحِمَها للحَملِ؛ لأجْلِ نَبيِّه زكريَّا، وهذا من فوائدِ الجَليسِ والقَرينِ الصَّالحِ؛ أنَّه مُبارَكٌ على قَرينِه.

الفوائد التربوية

٢- قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فهُم يَدْعونَ الله رغبةً فيما عندَه، وطَمَعًا في ثوابِه، معَ خوفِهم مِن عقابِه وآثارِ ذُنوبِهم، والمؤمِنُ ينبغي أن يسعى إلى الله تعالى بين الخَوفِ والرَّجاءِ، ويُغلِّب الرَّجاءَ في جانِبِ الطَّاعةِ لِيَنشطَ عليها ويؤَمِّلَ قَبولَها، ويُغلِّب الخَوفَ إذا هَمَّ بالمعصيةِ لِيَهرَبَ منها، وينجوَ مِن عِقابِها.

٣- الدِّينُ كُلُّه رَغبةٌ ورَهبةٌ؛ فالمؤمِنُ هو الرَّاغِبُ الرَّاهِبُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، وفي الدُّعاءِ عند النَّومِ: ((اللهُمَّ أسلَمْتُ نَفسي إليك، ووجَّهتُ وَجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأتُ ظَهري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك)) أخرجه البخاري (٧٠٥٠). فلا تجِدُ المؤمِنَ أبدًا إلَّا راغِبًا وراهِبًا، والرَّغبةُ والرَّهبةُ لا تقومُ إلَّا على ساقِ الصَّبرِ؛ فرَهبتُه تَحمِلُه على الصَّبرِ، ورَغبتُه تقودُه إلى الشُّكرِ.

٤- مِن أنواعِ العِباداتِ التي يَظهَرُ فيها الذُّلُّ والخُشوعُ لله عزَّ وجلَّ: الدُّعاءُ؛ قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، فممَّا يَظهَرُ فيه الذُّلُّ مِنَ الدُّعاءِ: رَفْعُ اليَدينِ، وافتقارُ القَلبِ في الدُّعاءِ، وانكِسارُه لله عزَّ وجَلَّ، واستِشعارُه شِدَّةَ الفاقةِ إليه والحاجةِ، وإظهارُ الذُّلِّ باللِّسانِ في نَفسِ السُّؤالِ، والدُّعاءُ والإلحاحُ فيه.

المقطع التاسع عشر

الآيات: ٩١-٩٤

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

معاني الكلمات

وَتَقَطَّعُوا	أي: اختَلَفوا، وتفرَّقوا.
فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ	أي: لا جحودَ لعملِه، ولا تضييعَ لجزائِه.

تفسير الآيات

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- مَريمَ التي حَفِظَت فَرْجَها من الحَرامِ، فأمَرْنا جبريلَ أن يَنفُخَ الرُّوحَ في جَيبِ درعِها، فبَلَغَت النَّفخةُ فَرْجَها، فحَمَلت بعيسى.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا مَريمَ وابنَها عيسى عَلامةً عَظيمةً للنَّاسِ تدُلُّهم على اللهِ، وعلى قُدرتِه وعَظيمِ سُلْطانِه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ (٩٢)﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

أي: إنَّ مِلَّةَ الإسلامِ أيُّها الناسُ هي مِلَّتُكم الَّتي يَجِبُ أن تُحافِظوا على حدودِها، وتُراعوا حقوقَها، وأنْ تكونوا عليها، لا تنحرِفونَ عنها، مِلَّةً واحِدَةً، غيرَ مختلفةٍ.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

أي: وأنا -لا غيري- مَنْ خلَقْتُكم وربَّيتُكم بنِعَمي، فما دام أنَّ الرَّبَّ واحِدٌ والدِّينَ واحِدٌ، فأفرِدُوني بالعِبادةِ، ولا تُشرِكوا بي، ولا تختَلِفوا في ذلك.

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى ابنِ مَريمَ في الأُولى والآخرةِ. قالوا: كيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلَّاتٍ، وأمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ، فليس بيننا نبيٌّ)). رواه مسلم(٢٣٦٥)

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ (٩٣)﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾.

أي: وتفرَّق النَّاسُ في دينِهم الذي شرَعَه اللهُ لهم، فصاروا فيه فِرَقًا وأحزابًا شَتَّى.

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾.

أي: كُلُّ أولئك المتفرِّقينَ المُختَلِفينَ في دينِ اللهِ صائِرونَ إلينا يَومَ القيامةِ، فنحكُمُ بينهم ونُجازيهم على أعمالِهم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤)﴾.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾.

أي: فمَن يعمَلْ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه، والحالُ أنَّه مُوَحِّدٌ للهِ تعالى مُخلِصٌ له في عَمَلِه؛ فلن يجحَدَ اللهُ عَمَلَه ولن يُضيعَه، بل يُثيبُه عليه يومَ القيامةِ.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾.

أي: ونحن نكتُبُ أعمالَه الصَّالِحةَ كُلَّها، صَغيرَها وكَبيرَها، لا نَترُكُ منها شَيئًا، وما كتَبْناه غيرُ ضائعٍ، بل هو باقٍ لصاحِبِه؛ لِنُطلِعَه عليه يومَ الجَزاءِ، ونجازيَه على ما قدَّمَ.

الفوائد التربوية

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فيه حَثٌّ على الاجتِماعِ، وتجنُّبِ الاختِلافِ، ولا شَكَّ أنَّ تحَزُّبَ المُسلِمينَ إلى أحزابٍ مُتَفَرِّقةٍ مُتناحِرةٍ مُخالِفٌ لِما تقتَضيه الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ مِن الائتِلافِ والاتِّفاقِ، موافِقٌ لِما يريدُه الشَّيطانُ مِن التَّحريشِ بينَ المُسلِمينَ، وإيقاعِ العَداوةِ والبَغضاءِ، وصَدِّهم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ.

٢- المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ ترغيبُ العبادِ في التمسُّكِ بطاعةِ اللهِ تعالى.

المقطع العشرون

الآيات: ٩٥-١٠٠

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ
فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ
هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ
أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ
﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

معاني الكلمات

حَدَبٍ	أي: مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِن الأرضِ.
يَنْسِلُونَ	أي: يُسرِعونَ.
شَاخِصَةٌ	أي: مُرتَفِعةُ الأجفانِ.
حَصَبُ جَهَنَّمَ	أي: حَطَبُها وما أُلقِيَ فيها.
وَارِدُونَ	أي: داخِلونَ، وأصلُ (ورد): يَدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ.
زَفِيرٌ	الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ.

تفسير الآيات

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)﴾.

أي: ومُمتنِعٌ على قريةٍ أهلَكْناها أن يَرجِعَ أهلُها.

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦)﴾.

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾.

أي: حتى إذا فُتِحَ السَّدُّ الذي حُبِسَ وراءَه قَبيلَتا يأجوجَ ومأجوجَ، فخَرَجوا منه.

وعن زَينَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دخَلَ عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ من شَرٍّ قد اقتَرَب، فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وحَلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟! قال: نَعَم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ)). أخرجه البخاري (٣٣٤٦).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه -وعَقَد بيدِه تِسعينَ)). أخرجه مسلم (٢٨٨١).

﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾.

أي: ويأجوجُ ومأجوجُ عندَ خُروجِهم يُقبِلونَ مِن كُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ، فيَمشُونَ مُسرِعينَ للإفسادِ في الأرضِ.

عن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم -في آخرِ حديثِ الدَّجَّالِ الطويلِ-: ((ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ، فيَمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَريَّةَ، فيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيَقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خيرًا من مئةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ في رِقابِهم، فيُصبِحون فَرْسَى كمَوتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعُ شِبرٍ إلَّا ملأه زَهَمُهم ونَتْنُهم، فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى اللهِ، فيُرسِلُ اللهُ طَيرًا

كأعناقِ البُختِ فتَحملُهم فتطرَحُهم حيثُ شاء اللهُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، فيَغسِلُ الأرضَ حتى يترُكَها كالزَّلَفةِ، ثمَّ يُقالُ للأرضِ: أنبتي ثَمرتَك، ورُدِّي بركَتَك، فيومَئذٍ تأكُلُ العِصابةُ مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلُّونَ بِقِحْفِها، ويُبارَكُ في الرِّسْلِ حتى إنَّ اللِّقْحة مِن الإبِلِ لَتكفي الفِئامَ مِن النَّاسِ! واللِّقْحةَ مِن البَقرِ لَتكفي القبيلةَ مِن النَّاسِ! واللِّقْحة مِنَ الغنَمِ لَتكفي الفَخْذَ مِن النَّاسِ! فبينما هم كذلك إذ بَعَث اللهُ ريحًا طَيِّبةً، فتأخُذُهم تحتَ آباطِهم، فتَقبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلِمٍ، ويبقى شِرارُ النَّاسِ، يَتَهارجونَ فيها تهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ السَّاعةُ)). أخرجه ابن ماجة (٤٠٧٥) صحيح.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾.

أي: حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ اقتَرَبَ مَجيءُ يومِ القيامةِ الذي وعَدَ اللهُ بإتيانِه وأن يَبعَثَ فيه عِبادَه مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ؛ فإنَّه إذا وُجِدَت تلك الأهوالُ والفِتَنُ والمِحَنُ الواقِعةُ في آخِرِ الزَّمانِ، فقد اقترَبت السَّاعةُ.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مَفتوحةٌ لا تَطرِفُ؛ مِن شِدَّةِ ما يَرَونَه مِن أهوالٍ وأمورٍ عِظامٍ.

﴿يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾.

أي: يَقولونَ: يا وَيلنَا قد كُنَّا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ.

﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

أي: بلْ كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بكُفرِنا برَبِّنا، ومَعصِيَتِنا له، وإعراضِنا عن آياتِه، وعبادَتِنا غَيرَه.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

أي: يُقالُ لهم: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- وما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ وَقودُ جَهنَّمَ، يُرمى بكم جميعًا في النَّارِ.

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

أي: أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- داخِلونَ جَهنَّمَ مع آلهَتِكم التي كُنتُم تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩)﴾.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾.

أي: لو كانت تلك الآلِهةُ المَعبودةُ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً حَقًّا كما يَزعُمُ عابِدوها، لَمَا دخَلَ العابِدونَ والمَعبودونَ جَهنَّمَ، ولَمَنَعت تلك الآلهةُ عابِديها مِن دُخولِها.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أي: وكلٌّ مِنَ الآلهةِ الباطِلةِ وعابِديها في جهَنَّمَ ماكِثونَ.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾.

أي: للمُشرِكينَ وآلهتِهم في جهنَّمَ زَفيرٌ مِن شِدَّةِ العَذابِ.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أي: وهم في جَهنَّمَ صُمٌّ لا يَسمَعونَ شَيئًا.

الفوائد التربوية

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ فيه تحذيرٌ مِن اللهِ للنَّاسِ أن يُقيموا على الكُفرِ والمعاصي، وأنَّه قد قَرُب انفِتاحُ يأجوجَ ومأجوجَ.

المقطع الحادي والعشرون

الآيات: ١٠١-١٠٥

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا
يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ
الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ
وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

معاني الكلمات

الْحُسْنَىٰ	أي: الجنَّةُ أو السَّعادةُ.
حَسِيسَهَا	أي: صَوْتَها وحَرَكةَ تلَهُّبِها.
نَطْوِي	الطَّيُّ: ضِدُّ النَّشرِ، وهو ثَنْيُ الشَّيءِ، أو ردُّ بَعضِه على بَعضٍ.
السِّجِلِّ	أي: الصَّحيفةِ التي فيها الكِتابُ.
الزَّبُورِ	أي: الكُتُبِ المُنزَّلةِ مِن السَّماءِ.

تفسير الآيات

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾.

سَبَبُ النُّزولِ

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((آيةٌ في كِتابِ اللهِ لا يَسألُني النَّاسُ عنها، ولا أدري أعَرَفوها فلا يَسألوني عنها، أم جَهِلوها فلا يَسألوني عنها؟! قيل: وما هِيَ؟ قال: آيةٌ لَمَّا نزَلَت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] شَقَّ ذلك على أهلِ مَكَّةَ، وقالوا: شَتَمَ مُحمَّدٌ آلِهَتَنا، فقام ابنُ الزِّبَعْرَى فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: شَتَم مُحمَّدٌ آلِهَتَنا، قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال: ادعُوه لي، فدُعِيَ مُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال ابنُ الزِّبَعْرَى: يا محمَّدُ، هذا شيءٌ لآلِهَتِنا خاصَّةً أم لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ؟ قال: بل لكُلِّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فقال: خَصَمْناه ورَبِّ هذه البَنِيَّةِ! يا مُحمَّدُ، ألستَ تزعُمُ أنَّ عيسى عَبدٌ صالِحٌ، وعُزَيرًا عَبدٌ صالِحٌ، والملائِكةَ عِبادٌ صالِحونَ؟ قال: بلى، قال: فهذه النَّصارى يَعبُدون عيسى، وهذه اليَهودُ تَعبُدُ عُزَيرًا، وهذه بنو مُلَيحٍ تَعبُدُ المَلائِكةَ، قال: فضَجَّ أهلُ مَكَّةَ، فنزَلَت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ -عيسى وعُزَيرٌ والملائِكةُ- ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. قال: ونزَلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]، وهو الضَّجيجُ)).

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾.

أي: إنَّ المُؤمِنينَ الذين سَبَق في عِلْمِنا منذُ الأزَلِ أنَّهم من أهلُ السَّعادةِ بدُخولِ الجَنَّةِ، مُبعَدونَ عن جَهَنَّمَ يومَ القيامةِ، فلا يَدخُلونَها، ولا يَقرَبونَ منها، وإنْ عَبَدَهم بَعضُ المُشرِكينَ بغَيرِ رِضاهم واختيارِهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

أي: لا يَسمَعُ المُؤمِنونَ وهم في الجَنَّةِ صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

أي: والمُؤمِنونَ فيما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن نَعيمِ الجَنَّةِ ماكِثونَ، لا يخافونَ زَوالًا عنه، ولا انتِقالًا منه.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾.

أي: لا يَحزُنُ المؤمنينَ الفزعُ الأكبَرُ يومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصُّورِ للحَشرِ.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أي: ويَستَقبِلُ الملائِكةُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ، فيُهَنِّئونَهم ويُبَشِّرونَهم برَحمةِ اللهِ، ونَيْلِ كرامتِه؛ يقولونَ لهم: هذا اليومُ الحاضِرُ هو اليَومُ الذي كُنتُم في الدُّنيا تُوعَدونَ أن يُثيبَكم اللهُ فيه على قيامِكم بطاعتِه.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

أي: لا يَحزُنُهم الفَزَعُ الأكبَرُ في ذلك اليَومِ الذي نَطْوي فيه السَّمواتِ كما تُطوى الصَّحيفةُ على الكَلامِ المكتوبِ فيها.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

أي: كما قدَرْنا على إيجادِ الخلقِ أوَّلَ مرةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم، ونحشرُهم على مِثلِ هَيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم: حُفاةً، عُراةً، غَيرَ مَختونينَ.

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّكم مَحشورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ثمَّ قرأ: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)). أخرجه البخاري (٣١٧١).

﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أي: وَعَدْناكم ذلك وَعدًا حَقًّا علينا أنْ نَفيَ به، فمِن شأنِنا أنَّنا نفعلُ ما نريدُ، وسنفعلُ ما وعَدْنا به لا مَحالةَ.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾.

أي: ولقَدْ كَتَبْنا في جميعِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ مِن السماءِ بعدَ اللوحِ المحفوظِ الذي كتَب اللهُ فيه كلَّ ما هو كائنٌ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادِيَ العامِلونَ بطاعَتي، الذين قاموا بالمأموراتِ، واجتَنَبوا المَنهيَّاتِ.وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوى لِيَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها)). أخرجه أبي داود (٤٢٥٢) سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح].

الفوائد التربوية

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أنَّ أرضَ الشامِ كُتِبتْ للصَّالحينَ، ورِثها بنو إسرائيلَ مِن الجبَّارينَ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ الحقِّ، ثم ورِثها النَّصارَى مِن اليهودِ؛ لأنَّهم أهلُ الحقِّ، ثم ورِثها المسلمون مِن النَّصارَى؛ لأنَّهم أهلُ الحقِّ. وعلى هذا فاليهودُ الآنَ لا حقَّ لهم في فلسطينَ ولا غيرِها مِن أرضِ الله، ليس لهم حقٌّ في الأرضِ أبدًا -لا هم، ولا أي كافرٍ- ؛ لأنَّ الأرضَ إنَّما يستحقُّها عبادُ الله الصالحونَ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، لكن إن صلحَ المسلمونَ ورجَعوا إلى دينِهم الحقيقيِّ -الذي يُورثُهم الله به أرضَه- فإنَّنا نجزمُ جزمًا بأنَّهم سوف يَسترجِعون الأرضَ؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، لكن ما دام المسلمونَ على هذا الوصفِ؛ فإنَّه حسَبَ القواعدِ الشرعيَّةِ والنُّصوصِ لا يستحقُّون النصرَ؛ لأنَّهم لم يقوموا بجهادِ أنفسِهم؛ فكيف يقومونَ بجهادِ غيرِهم ليُدخِلوه في الإسلامِ؟! الآنَ أقيموا الإسلامَ فيما بيْنَكم؛ أقيموا دينَ الله فيما بينَكم؛ ثم بعد ذلك سوف ينصرُ الله دينَه إذا قُمْتُم به؛ لأنَّ الله لا ينصرُ فلانًا لأنَّه فلانٌ! أو ينصرُ هذه الطائفةَ لأنَّهم عربٌ! أو ينصرُ هذه الطائفةَ لأنَّهم فُرسٌ! بل ينصرُ مَن قام بهذا الدينِ.

المقطع الثاني والعشرون

الآيات: ١٠٦-١١٢

﴿إِنَّ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن
تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ
﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ
فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ
ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

معاني الكلمات

لَبَلَاغًا	أي: لكفايةً.
آذَنْتُكُمْ	أي: أعلَمْتُكم وأنذَرْتُكم.
عَلَى سَوَاءٍ	أي: على استواءٍ في العِلمِ مِنك ومِنهم.
تَصِفُونَ	أي: تكذِبونَ وتقولونَ.

تفسير الآيات

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾.

أي: إنَّ في هذا القرآنِ الذي أنزَلْناه على نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لَكفايةً؛ يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغيَتِهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ لِقَومٍ دَيدَنُهم وشأنُهم القيامُ بعِبادةِ اللهِ بما شَرَعَ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رَحمةً لِجَميعِ الخَلقِ.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قيل: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ على المُشرِكينَ، قال: إنِّي لم أُبعَثْ لعَّانًا، وإنما بُعِثْتُ رَحمةً)). أخرجه مسلم (١٨٢٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما يُوحي اللهُ إليَّ أنَّما مَعبودُكم مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له في العِبادةِ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ لِتَوحيدِ اللهِ، مُنقادونَ لِطاعتِه وعِبادتِه وَحْدَه بعدَ هذا البَيانِ؟

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ النَّاسُ عن الإسلامِ، فقُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: أعلَمْتُكم ببَراءتي منكم وبراءتِكم مِنِّي، وأنَّه لا صُلحَ بينَنا، ولا سِلْمَ، فاستَوَينا جميعًا في العِلمِ بذلك.

﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾.

أي: وما أدري أقريبٌ زَمَنُ وُقوعِ ما وعَدَكم اللهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ؟

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾.

أي: لكنَّ عَذابَكم واقِعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَجهَرُ به عِبادُه مِن أقوالِهم، ويَعلَمُ ما تُخفونَه -أيُّها المُشرِكونَ- وسيُجازيكم على ذلك عاجِلًا أو آجِلًا.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١)﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: فإنْ تأخَّرَ عذابُكم، فما أدري سَبَبَ ذلك وحِكمَتَه، لكنْ لعلَّه فِتنةٌ لكم، فتزدادُ سَيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قليلًا في حياتِكم إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾.

أي: قال مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ داعيًا رَبَّه: يا رَبِّ، افعَلْ ما تنصُرُ به عبادَك، وتَخذُلُ به أعداءَك.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

أي: وربُّنا المتَّصِفُ بالرَّحمةِ الواسِعةِ هو وَحْدَه الذي نَطلُبُ منه العَونَ عليكم -أيُّها المُشرِكونَ- على ما تَفتَرونَه عليه وعلى رَسولِه مِن الوَصفِ الباطِلِ.

الفوائد التربوية

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ فليس للعابِدينَ الذين هم أشرَفُ الخَلقِ وراءه غايةٌ؛ لأنَّه الكَفيلُ بمَعرفةِ رَبِّهم بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وبالإخبارِ بالغُيوبِ الصَّادِقةِ، وبالدَّعوةِ لحقائِقِ الإيمانِ، وشواهِدِ الإيقانِ؛ المُبَيِّنُ للمأموراتِ كُلِّها، والمَنهيَّاتِ جميعًا، المُعَرِّفُ بعُيوبِ النَّفسِ والعملِ، والطُّرُقِ التي ينبغي سلوكُها في دقيقِ الدِّينِ وجَليلِه، والتَّحذيرِ مِن طُرُقِ الشَّيطانِ، وبيانِ مَداخِلِه على الإنسانِ، فمَن لم يُغْنِه القرآنُ فلا أغناه اللهُ، ومَن لا يَكفيه فلا كفاه اللهُ!

الفوائد التربوية

٢- على الإنسانِ أن يكونَ مَقصودُه نَفعَ الخَلقِ، والإحسانَ إليهم مُطلَقًا، وهذا هو الرَّحمةُ التي بُعِثَ بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، والرَّحمةُ يحصُلُ بها نَفعُ العِبادِ؛ فعلى العَبدِ أن يَقصِدَ الرَّحمةَ والإحسانَ والنَّفعَ، لكِنْ للاحتياجِ إلى دَفعِ الظُّلمِ شُرِعَت العُقوباتُ، وعلى المُقيمِ لها أن يَقصِدَ بها النَّفعَ والإحسانَ، كما يَقصِدُ الوالِدُ بعُقوبةِ وَلَدِه، والطَّبيبُ بدواءِ المَريضِ، والمقصودُ بهذه النُّكتةِ أنَّ الدِّينَ والشَّرعَ لم يأمُرْ إلَّا بما هو نَفعٌ وإحسانٌ ورَحمةٌ للعبادِ، وأنَّ المُؤمِنَ عليه أن يَقصِدَ ذلك ويُريدَه، فيكونَ مَقصودُه الإحسانَ إلى الخَلقِ ونَفعَهم، وإذا لم يَحصُلْ ذلك إلَّا بالإضرارِ ببَعضِهم، فعلَه على نيَّةِ أن يدفَعَ به ما هو شَرٌّ منه، أو يحصُلَ به ما هو أنفَعُ مِن عَدَمِه.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا الاستِفهامُ يتضَمَّنُ الأمرَ بإخلاصِ التَّوحيدِ والانقيادِ إلى اللهِ تعالى.

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ المقصودُ منه الأمرُ بالإخلاصِ، وتَركُ النِّفاقِ؛ لأنَّه تعالى إذا كان عالِمًا بالضَّمائرِ، وجَبَ على العاقِلِ أن يُبالِغَ في الإخلاصِ.

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ في هذه الآيةِ أعظَمُ حَثٍّ على لُزومِ الإنسانِ بالحَقِّ؛ ليتأهَّلَ لهذه الدَّعوةِ، فالمرادُ بقولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: كُنْ أنت أيُّها القائلُ على الحقِّ؛ لِيُمْكِنَكَ أنْ تقولَ: احكمْ بالحقِّ، لأنَّ المُبطِلَ لا يمكنُه أنْ يقولَ: ﴿احْكُمْ بالحق﴾.

قصص الأنبياء

عليهم السلام

قصة موسى عليه السلام

كليم الله موسى عليه السلام

هو أعظم أنبياء بني إسرائيل، كليم الله، أحد أولي العزم من الرسل، النبي الرسول الكريم الذي ما ذُكر نبي في القرآن بعد رسول الله ﷺ أكثر من ذكره، حتى ورد ذكره في كتاب الله تبارك وتعالى ستًا وثلاثين مرة بعد المئة، هو: موسى بن عمران من نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام.

أمته التي أرسل فيها هي أعظم الأمم بعد أمة نبينا محمد ﷺ، وهي أفضل الأمم في زمانها كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم. وأمة نبينا محمد ﷺ خيرٌ منهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، كتابه التوراة التي خطها الله تعالى بيده.

السبب في كثرة ذكر موسى عليه السلام:

تكرر اسمه كثيرًا في كتاب الله تبارك وتعالى مما يدلّ على أن الله يريد منا أن نتدبر أحواله، وما لاق من المشاقّ، والتعب، والأذى، والفتنة، حتى قال الله تبارك وتعالى له: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، فَفُتِنَ موسى عليه السلام كثيرًا كما سيأتي ذلك مفصلًا في حديثنا عنه صلوات الله وسلامه عليه.

وأُرسلَ موسى إلى أعتى ملوك الأرض في زمانه، أُرسل موسى -صلوات الله وسلامه عليه- في بني إسرائيل، وبنو إسرائيل أمَّةٌ سكنتْ مصرَ، ومكَّن الله لها في الأرض، وهم نسلُ يعقوب عليه الصلاة والسلام، فيعقوب هو إسرائيل.

بنو إسرائيل تسلط عليها فرعون الطاغية المتجبر أعتى ملوك الأرض، وأقدمهم عرشًا، وأثبتهم مُلْكًا، وأعرقهم مدينة، وأشدهم تعبدًا للناس واستكبارًا في الأرض، ادّعى الربوبية، وادّعى الألوهية، قال جلا وعلا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى﴾، وقال كذلك: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، واستهزأ برسول الله موسى -عليه السلام-، وادّعى أنه خيرٌ منه، فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، وهكذا ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وبلغه أن رجلًا من بني إسرائيل سيكون على يديه ذهاب مُلْكه، وذلك في رؤيا رآها أزعجته.

قال سعيد بن جبير: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى -عليه السلام-: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال لي: استأنفَ النهارُ يا ابن جبير -يعني: نحن الآن في وسط النهار- فإن لها حديثًا طويلًا فاتركني، يقول: فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال ابن عباس: تذاكر فرعونُ وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، وما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليهما السلام فلما هلك، قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتَمِروا، فأتَمَروا وجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشِفار -أي: السكاكين- يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلّا ذبحوه، خوفًا من أن تصدق مقولة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ففعلوا ذلك فلمّا رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يُذبحون قالوا: تُوشِكون أن تُفنوا بني إسرائيل، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر، ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا، وكان لا يذبح الإناث؛ لأنه لا خوف من النساء في ذلك الزمان.

ميلاد موسى عليه السلام وخوف أمه عليه:

وولد موسى صلوات الله وسلامه عليه في العام الذي يُذبح فيه الأولاد الذكور، وولد هارون قبله في العام الذي ما كان يذبح فيه فرعون، فلما حملتْ أم موسى بموسى صلوات الله وسلامه عليه؛ خافت عليه؛ لأنه العام الذي يقتل فيه فرعون كل مولود ذكر، فماذا تصنع أم موسى؟ وكان الله تبارك وتعالى قد أخفى حملها، فلم تعلم القابلات، لم يشعُرْنَ بحملها، فلما وضعته خافتْ عليه خوفًا شديدًا، ماذا تصنع به؟

قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، أمرٌ من الباري -جلا وعلا- لأم موسى: اجعلي موسى في تابوت، واجعلي التابوت الذي هو الصندوق في النهر -نهر النيل- ﴿وَلَا تَخَافِي

﴿وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، فصنعت ما أمرها الله به.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أي: إذا وُلِدَ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ يعني: من قتل فرعون له ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، وهذا أمر عجيب، بدَل أن يقول لها: فإذا خفت عليه فأخفيه، يقول لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، ابتلاءٌ من الله تبارك وتعالى لأم موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ هذا الوحي وحي إلهام، وليس هو الوحي الذي يأتي الرسل، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، ألهم الله تبارك وتعالى أمّ موسى أن تفعل هذا الأمر، لا أن الملك نزَل إليها وكلّمها، وفي هذه الآية -كما يقول أهل العلم- أمران، ونهيان، وبشارتان في سطر واحد:

فالأمران في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ﴾، **والنهيان** في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.

والبشارتان في قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه هي بلاغة الكتاب العزيز، بلاغة القرآن الكريم.

موسى عليه السلام يُربى في بيت عدوه:

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ قدَّرَ الله ألا يلتقطه أحد غير آل فرعون ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وكانت امرأة صالحة، وهي: آسية بنت مزاحم، وذلك بمجرد أن رأته امرأة فرعون ألقى الله -جلّ وعلا- محبةَ موسى في قلبها، فأحبته حبًا شديدًا بمجرد أن رأته، فقالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وقد ذُكر أن فرعون لم يكن له أولاد، فقالت: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ أي: هذا الغلام إذا كَبُرَ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون أن ذهاب ملك فرعون سيكون على يد هذا الولد.

يقول ابن عباس: «والذي أحلف به لو قال فرعون: نعم قرةُ عينٍ لي ولكِ؛ لكان في هذا هدايته»، ولكن كما قيل: القدر موكل بالمنطق، وذلك أنها لما قالت: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾

قال: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا، وكان كما قال، فكان قرة عين لآسية امرأةِ فرعون، فكان دخولها الجنة بسببه، وكان هلاكًا ودمارًا على فرعون، حتى دخل النار؛ لأنه قال: «لا»، فلم يكن قرة عين له، بل كان عذابًا على فرعون.

إذا كان الله تبارك وتعالى هو الذي يرعاه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ من الذي يستطيع أن يؤذيه؟ لا أحد أبدًا، إذا كان الله هو الذي يرعاه سبحانه وتعالى.

إذا أراد الله عز وجل أمرًا كان ولابد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بشارة، اطمئني سيرجع إليك موسى، فلا تخافي، ولا تحزني، وحقَّق الله لها البشارة الأولى: قال -جلّ وعلا- بعد أن أخذَ آلُ فرعون موسى عليه السلام: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ يقول أهل العلم: فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، لا تفكر في شيء إلّا موسى أين ذهب؟ أخذه اليمّ إلى أين؟ حيّ؟ ميت؟ هل أخذه أحد؟ هل غرق في البحر؟ ما تدري ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي: فلما ربط الله على قلبها لم تُبْدِ بِهِ، وذلك أنها لو أبدتْ به لقالت من وجد غلامًا في اليم؟ كادتْ أن تتكلم، كادتْ أن تصيح: ولدي أين ذهب؟ من أخذه ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ ربط الله على قلبها، سَكَّنَهَا، وهدأها سبحانه وتعالى لتكون من المؤمنين، عند ذلك ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ وتتبعي واسألي بين الناس، أنا ما أستطيع أخشى أنني لو خرجت أصيح بين الناس ولا أتحمل، فذهبت أخته تَقُصُّهُ وتبحث عنه، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ يعني: عن بُعْدٍ رأته، رأت موسى عليه السلام ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لم تشعرهم أنها تنظر إليه أو تبحث عنه كأنها لا تعرفه، المهم عرفتْ من حديث الناس أن فرعون وزوجته وجدا غلامًا، في اليم فعرفتْ أنه موسى عليه السلام.

موسى عليه السلام يرجع إلى أمه:

تقدير عظيم من الله سبحانه وتعالى، قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ لا يقبل ثديًا، كلما جاؤوا بمرضعة رفضها، فلا يقبل مرضعة، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ

﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، قالوا لها: وما يدريك أنهم له ناصحون؟ شكّوا في أمرها، قالت: لشفقتهم عليه، ورغبتهم في قضاء حاجة الملك، ورجاء المنفعة، ولذلك أتوقع هذا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ فأخذته إلى أمه، ولِمَ؟ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وذلك لما أوحى الله إليها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لكن ما المشكلة؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإن الله إذا أراد أمرًا هيأ الأسباب، وأزال الموانع، فيقع ما يريده الله جلّ وعلا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بشارة من الله -جلّ وعلا- لأم موسى، وكان كما بشرها الله سبحانه وتعالى، أتاها ابنها إلى بيتها ولكن بدون خوف، ولو ظل عندها في بيتها لكانت ترضعه، وتجعله في التابوت سنين عددًا، لكن هنا يأتيها معززًا مكرمًا من بيت فرعون، وذلك أنهم أتوا بها إلى بيت فرعون، فأرضعته، فقبل ثديها، فقالت لها امرأة فرعون: تبقين عندي، هذا سكنكِ، حتى ترضعي الغلام، فماذا قالت لها أم موسى؟ قالت: لا، أرجع إلى بيتي.

قالت: أعطيك من المال ما تشائين.

قالت: لا، أبقوا ولدكم، وأنا أرجع إلى بيتي. الآن أصبح عندها ثقة تامة بالله تبارك وتعالى، تعرف أنه سيرد إليها بعد ذلك.

فقالت: إذًا تأخذينه معكِ، وتأخذين عليه أجرة، فهي ترضع ولدها بأمان، وتأخذ عليه أجرة، بل ويقال: «هذه أم موسى»، وكانت تخاف أن يقال: «أم موسى»، فأنتِ شرعًا أمه حقيقة، وأمه من الرضاعة أمامهم.

موسى عليه السلام يرجع إلى قصر فرعون:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت امرأة فرعون لأم موسى: ائتيني بولدي، أريد أن يزورني، فواعدتها يومًا أن يأتيها، وقالت امرأة فرعون لخزانها وخدمها: لا يبقين أحدٌ منكم إلّا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، فاليوم سيرجع البيت بعد سنتين من الفراق، وعلى كل واحد أن يأتيه بهدية لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أمينًا يُحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحَل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى حين دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته، وأكرمته، وفرحتْ به، وأهدتْ لأمه كذلك لحسن

أثرها عليه؛ لأنها أرضعته، ثمّ قالت: لآتين فرعون فليكرمنه ولينحلنه، فلما دخلتْ به على فرعون جعله فرعون في حجره، فأخذ موسى لحية فرعون فجرها إلى الأرض، فقال الغواة الذين يجلسون مع فرعون لفرعون: ألا ترى ما وعد الله نبيه إبراهيم؟ إنه زعم أنه يعلوك ويصرعك، فلعله هذا الغلام، وعندها أرسل إلى الذباحين ليذبحوه، ويقول ابن عباس: وذلك من الفُتون ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدالك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟

قال: إنه يزعم أنه سيصرعني. قالت: اجعل بينك وبينه أمرًا يعرف فيه الحق، ائتِ بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهنَّ إليه، فإذا أخذ باللؤلؤ واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل -وكان عمر موسى سنتين-، وإن تناول الجمرتين ولم يرِد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحدًا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرّبْ ذلك إليه، فتناول موسى الجمرتين. قال: فنزعهما منه مخافة أن يحرق يديه. فقالت المرأة: ألا ترى؟ لا يعقل الغلام. قال: فصرفه الله عنه بعد أن كان همّ به.

من السنتين إلى أن بلغ موسى صلوات الله وسلامه عليه أَشُدَّهُ، والله أعلم كيف كانت حياته، ولكن يكفي أنه تربى في بيت فرعون كما قال له فرعون بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

قتل القبطي:

وتمُرُّ هذه المرحلة من حياة موسى صلوات الله وسلامه عليه سريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد عزّوا في زمن موسى بعد أنْ كانوا مهانين يُؤذون، ويُضْرَبُون، ويُقْتَلون؛ لأنهم يقولون نحن أخوال موسى بن فرعون، وما علموا أن موسى من بني إسرائيل أصلًا، لكنّهم يفتخرون أن امرأة من بني إسرائيل أرضعتْ ابنَ فرعون، فيقولون: نحن أخوال موسى من الرضاعة، وكان موسى يدافع عنهم، وذلك أنه يدافع عن الحق صلوات الله وسلامه عليه، وقد كانوا مظلومين، وكانت له مكانة ابن فرعون في ذلك الوقت.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، دخل وقت الراحة، إما في الظهيرة، وإما بعد العشاء، فوجد رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعته -أي: من بني إسرائيل- ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ لأن في الأصل أن القبط كانوا هم الظلمة الذين يؤذون بني إسرائيل: يقتلونهم، ويأخذون أموالهم، ويسخرونهم، ويضربونهم.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ يعني: ضربه بمَجْمَع يده. وقيل: لَكَمَهُ، فقضى عليه، وكان موسى قويًا صلوات الله وسلامه عليه، فما كان يقصد أن يقتله، ولكن قدَّر الله تبارك وتعالى أن مات ذلك الرجل من تلك الضربة، قال موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ما قصدتُّ قتله، قصدت ضربه.

وهنا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ لأنه قتله بدون قصد ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وكان موسى هنا قبل البعثة، فأي دين كان عليه موسى؟ دين إبراهيم، دين يعقوب، دين يوسف، دين بني إسرائيل، ثمّ قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ لن أستخدم هذه القوة لكي أكون عونًا للمجرمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يخاف أن ينكشف أمره وأنه قتل ذلك القبطي، وذلك صار حديثَ المدينة، من الذي قتله؟ وما اطلع على هذا إلّا ثلاثة فقط، الله جلّ وعلا، وموسى عليه السلام، والإسرائيلي الذي كان معه، فلا أحدٌ يدري من الذي قتل هذا القبطي، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يقول لموسى: انصرني على هذا القبطي يا موسى، فاستغاث به اليوم أيضًا، ولأنه كانت له مشاجرة مع قبطي آخر، قال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، كل يوم مشاجرة؟ أمس قُتِلَ الرجل بسببك، واليوم أيضًا مشاجرة؟ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أراد أيضًا أن يضرب القبطي؛ لأن القبط -كما قلنا- كانوا يؤذون بني إسرائيل أذية ما بعدها أذية كما قال الله عز وجل: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

قال القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ نحن قلنا: لم يعلم إلا ثلاثة، ولا يدري القبطي أن موسى قتل نفسًا بالأمس.

قال أهل العلم: إنما الذي قال هذا هو الإسرائيلي، وذلك أن موسى لما غضب عليه

وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ وجاءه مغضبًا ظنَّ الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو؛ لأنه هدده بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾، فخاف أن يقتله موسى، أو أن يضربه صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾، فسمع القبطي، وهنا قال: إذًا موسى هو الذي قَتَل القبطي، فهرب القبطي، وصار يصيح: موسى القاتل، موسى القاتل، وذهب إلى فرعون يخبره أن موسى هو القاتل، الإسرائيلي الذي دافع عنه موسى هو الذي فضحه، وقال: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

عندها خاف موسى أكثر، مِنْ قبل خاف أن يُعْرف، والآن عُرِف أن موسى هو القاتل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ أي: يمشي مشيًا سريعًا أو يركب، المهم جاء سريعًا، وهذا الرجل ظاهره أنه من آل فرعون، فكما أنّ آسيةَ امرأةٌ صالحة، كذلك لا يخلو هذا المجتمع القبطي الكبير من أن يكون فيه أناس صالحون، فجاء الرجل إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾.

موسى في مدين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إذًا بَيّن الله تبارك وتعالى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه توجه إلى مدين، ومدين بلدة في الأردن، قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخذ منها بعض أهل العلم أنه ما كان يقصد مدين، وإنما كان يقصد الهروب من مصر، وسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفّقه إلى بلد طيب، فوفّقه الله إلى مدين.

قال الله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، وماء مدين بئر يسقي منه أهل مدين وجد عليه أمة -أي: جماعة- من الناس يسقون، ووجد امرأتين تذودان؛ أي: تمنعان غنمهما من الدخول مع غنم الناس، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ لأن الأمر لفت نظره، أمر غريب هما جاءتا لتسقيا الغنم، وهنا تمنعان الغنم من أن تسقي أو تشرب الماء ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ﴾ أي: نحن ممنوعتان من السقي، ونحن نَمْنع غنمنا؛ لأنها بهائم لا تفهم، حتى يسقي الرعاة جميعًا، ويذهبون،

ثمّ نأتي نحن ونسقي لضعفنا، وقبل أن يسألهما موسى -صلوات الله وسلامه عليه- ما مِنْ رجلٍ يأتي ليسقي لكما؟ ما مِنْ أخٍ؟ ما مِنْ زوجٍ؟ قالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: قبل أن تسأل: السبب الذي من أجله نحن نسقي الغنم، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي: دخل بين الناس، وسقى لهما مع الرعاء صلوات الله وسلامه عليه، حيث أخذته الغَيْرة والحمية لهاتين المرأتين، ورأى أنَّ هؤلاء القوم فيهم غلظة، وسوء أدبٍ مع هؤلاء النساء الضعيفات، فلذلك سقى لهما صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنّ أول من يسقي عادة: الأقوياء، فيأخذون الأمر بالقوة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: بحث عن ظل يجلس فيه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يشكو إلى الله فقره، ولكن بأدب، أنت يا رب أعطيتني خيرًا عظيمًا، ومع ذلك أحتاج إلى زيادة فضلٍ، ولذلك الإنسان المؤمن دائمًا لا ينسى فضل الله عليه، وإذا أراد أن يسأل الله سبحانه وتعالى، فإنه يُستحب له كذلك أن يذكر فضل الله عليه.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَاءٍ﴾ مباشرة استجاب الله سبحانه وتعالى له، و(الفاء) هنا تفيد التعقيب؛ أي: مباشرة، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ولم يأته الأب؛ لأنه لو كان يستطيع أن يأتيه؛ لجاء وسقى الغنم ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ لِمَ؟ ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فذهب موسى عليه السلام إلى أبيهما ودخل عليه يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ يعني: أخبره بقصته، وكيف أنه خرج من مصر، وكيف أنّ فرعون يذبح أبناءها، ويستحيي نساءها، وأنه خرج خائفًا، وكيف ألقته أمه في اليم، وتربى في بيت فرعون وقتل الرجل، وهكذا ذكر قصته لشعيب عليه السلام أو للرجل الذي جلس عنده الذي هو أبو المرأتين ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ قال له الرجل: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

زواج موسى عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ لما رأتْ هذا المنظر، وهذا الكلام من موسى، ومن أبيها؛ قالت: ﴿يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ﴾، هو غريب محتاج إلينا، ونحن محتاجون إليه ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ يعني: لو بحثتَ عن شخص تستأجره لما وجدت مثله، فهو قوي

دخل بين الرجال وسقى لنا، وأمين حيث إنه لما سقى لنا تركنا، ولم يكلمنا، ولم يطلب أجرًا.

واقتنع الأب بكلام ابنته، فقال له: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ تكون أجيرًا، وهذا يكون مهرًا، فليس شرطًا أن يكون المهر مالًا، ولذلك النبي ﷺ زَوَّجَ امرأةً لرجل بما معه من القرآن، على أن يعلمها إياه[1]، قال: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ وجزاك الله خيرًا، قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ فليس المقصود أن أشقّ عليك، ولكن -أيضًا- لا يمكن أن يكون زواج بدون مهر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾، قال له موسى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وتم الاتفاق بين موسى عليه السلام والرجل.

المعروف لا يضيع:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «جلس إلى الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وقد ذُكِرَ أن بطنه لصق بظهره من الجوع، وكان لا يجد إلّا ورق الشجر ليأكله، وبعض البقول».

ولما صنع موسى عليه السلام هذا الجميل في المرأتين؛ كان الجزاء من الله عز وجل سريعًا، فبمجرد أن جلسّ إلى الظل جاءته إحداهما: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وهو كما قال الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾.

بعد ذلك مرّتْ السنون، وموسى صلوات الله وسلامه عليه في مدْين بقي فيها عشر سنوات، وقيل أكثر، حتى ذهب كثير من أهل العلم إلى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه بقي في مدين عشرين سنة، لكن القرآن الكريم لم يذكر لنا ماذا وقع من موسى خلال هذه السنوات أبدًا، كما هو الحال بالنسبة للسنوات التي قضاها في بيت فرعون إلى أن بلغ أشده.

والسبب في عدم ذكر عدد السنوات أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بحيث يذكر لك كل يوم ماذا صنع موسى، وإنما هو كتاب هداية يعطيك ما ينفعك ويذكر لك ما يقيك النار ويُدخلك الجنة.

---

[1] أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

موسى عليه السلام يتوجه إلى مصر بعد قضاء الأجل:

قضى موسى الأجل، وأتمه على أكمل وجه، كما قال ابن عباس: إن رسول الله إذا قال فعل. وبعد ذلك توجه بأهله إلى مصر حيث أسرته هناك، وقومه، وبلده الذي نشأ فيه، وهو لا يعلم في ذهابه ذلك ما سيحدث له من الإكرام من رب العزة تبارك وتعالى.

خرج من قومه خائفًا يترقب، ومرّتْ عشرون سنة، أو قريبًا من ذلك، وما علم صلوات الله وسلامه عليه أن الله -جلّ وعلا- سيناديه وسيكلمه ويناجيه، وذلك بالوادي المقدس، فسار بأهله ومعه قطيع من الغنم متجهًا إلى مصر.

خرج بأهله إلى مصر، وهم في الطريق أبصر نارًا من بعيد، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، قال أهل العلم: **وهذا يدلّ على عدة أمور:**

الأول: أن موسى كان تائهًا في الطريق ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني الطريق، وفي آية أخرى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ يعني: مَنْ يهديني الطريق.

الثاني: ظلمة الليل الشديدة، ولذلك أراد جذوة من النار أو قبسًا من نور يهتدي به صلوات الله وسلامه عليه.

الثالث: البرد كان شديدًا لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

بداية الوحي لموسى عليه السلام:

قصّ الله علينا قصته، فقال جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ

مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ آياتٌ واضحةٌ تمامًا تبين لنا ما حدث لموسى لما ذهب إلى تلك النار.

وقال جلّ وعلا كذلك في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾

هذه منّة أخرى مني لك، سأشد عضدك بأخيك، **وفي هذه الآيات أمور، منها:**

الأول: إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وأنه كَلَّمَ موسى، ولذلك يقال لموسى: (كليم الله)، والله -جلّ وعلا- يتكلم متى شاء، كيف شاء بما شاء سبحانه وتعالى.

الثاني: قول الله تبارك وتعالى لموسى عن العصا: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها؛ فإذا هي تسعى كأنها جانّ، والجانّ هي الحيةُ العظيمةُ السريعةُ الحركة، أمْرٌ مخيف لما رآه موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، ذُهِلَ من النار ووضْعِها، وذُهِلَ من الصوت، وهو لا يراه، وذُهِلَ من العصا لمّا ألقاها فإذا هي تسعى كأنها جانّ، ذُهِلَ -صلوات الله وسلامه عليه- في هذه الليلة المظلمة، عندها قال الله جلّ وعلا: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ ضع يدك على قلبك يذهب كل شيء مِنْ الرهبة والخوف، وهكذا المؤمن إذا أنسَ بالله ولجأ إليه فإنه يُذهب عنه كل شيء يرهبه، ولا شك أن هذا أمرٌ عظيمٌ وخارقٌ للعادة، وقاطع بأن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الفعال لما يريد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ما المآرب الأخرى؟ يقال: إن الحجاج بن يوسف الثقفي لقي أعرابيًا فقال له: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال مِنَ البادية: قال: وماذا في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعُدُّها لعَدَاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها في سفري، وأعتمد بها في مشيي؛ لتتسع خطوتي، وأثب على النهر، وتؤمنني من العَسَرِ، وأُلقي عليها كسائي، فيقيني الحر، ويدفئني من القَرِّ، وتُدْني إليّ ما بَعُد عني، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقْرَ الكلاب، وتنوب عني الرمح في الطعن، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وسأورّثُها ابني، وأهشُّ بها على غنمي، وليَ فيها مآربُ أخرى.

والله تبارك وتعالى قال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ليس برصًا، ولا بهقًا، وإنما هو نور، ولذلك قال أهل العلم: كانت مثل القمر تتلألأ.

بقيتْ أمور، وهي قول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فمن كان في النار؟ ومن كان حولها؟ الصحيح في هذه المسألة ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الذين حضروا عند النار في ذلك الوقت، وهم موسى والملائكة الذين أرسلهم الله جلّ وعلا، وإن كانوا لم يُذكروا نصًا في كتاب الله سبحانه وتعالى، أما الله جلّ وعلا فكلّم موسى وهو مستوٍ على عرشه فوق سماواته جلّ وعلا؛ فَبُورك موسى وبُورِك الملائكة، وبُوركت النار، وبُورِكت البقعة التي فيها تلك النار، ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِي ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ﴾ بقعة مباركة، ورجل مبارك، وملائكة مباركون، وشجرة مباركة ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

أقسام البركة:

قال أهل العلم: البركة هي كثرة الخير، وتكون في أمور: في الأقوال، والأفعال، والأماكن، والأزمنة، وأمور أخرى:

فأما في الأقوال: فكتاب الله سبحانه وتعالى كتابٌ مباركٌ، والبركةُ فيه ظاهرة، فهو رحمةٌ، وهو شفاء، وهو شفاعة، وهو أجر، عندما تقرؤه تأتيك البركة من كل جهة.

وأما في الأفعال: كطلب العلم، فيبارك الله لك في وقتك، ويبارك الله لك في علمك، ويبارك الله لك في الأجر الذي تأخذه، ويبارك الله لك فتعبد الله على بينة من أمرك.

وأما في الأماكن: فالمساجد مباركة، خاصةً المساجد الثلاثة، ومكّة مباركة، والمدينة مباركة، وهذا الوادي مبارك، والشام مباركة، فيجعل الله تبارك وتعالى البركة في هذه الأماكن سبحانه وتعالى.

وأما في الأزمان: فرمضان مبارك، وليلة القدر مباركة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، وعشر ذي الحجة أيام مباركة.

وأما الأمور الأخرى: فماء زمزم مبارك[1]، وزيت الزيتون مبارك[2]، ولعق الأصابع بعد الأكل فيه البركة[3]، والخيل جعل الله فيها البركة[4].

وهناك أشخاص مباركون: فمحمد ﷺ مُبَارَكٌ، وموسى عليه السلام مبارك، باركه الله: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وعيسى عليه السلام مبارك ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، وهذه بركة يجعلها الله في أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موسى عليه السلام يبدأ في تبليغ رسالته:

أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام وبَيَّن له أنه مبعوث من عنده، وأنه رسول وأراه الآيات الدالة على صدقه، والعصى التي ألقاها، ثمّ ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، ثمّ أخذها فإذا هي عصا، ثمّ أدخل يده، فإذا هي بيضاء، ووضع يده على صدره، فذهب الرهب عنه، وسمع كلام الرب وأنِسَ به صلوات الله وسلامه عليه، واطمأنتْ نفسه، أدرك أهمية المسألة، وضخامة الأمر والمهمة التي أوكلها الله إليه، فذكر لله سبحانه وتعالى أمورًا يحذرها، ثمّ طلب أشياء من الله عز وجل.

---

١ أخرج مسلم (٢٤٧٣) أن النبي ﷺ قال عن زمزم "إنها مباركة إنها طعام طعم" وفي رواية "وشفاء سقم".

٢ قال النبي ﷺ: "كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة" أخرجه الترمذي (١٧٧٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

٣ عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال: "إنكم لا تدرون في أيِّهِ البركة" أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

٤ قال النبي ﷺ: "البركة في نواصي الخيل" أخرجه البخاري (٢٨٥١)، ومسلم (١٨٧٢).

فالأمور التي يحذرها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ وقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

والأمور التي يرجوها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾، وذلك أنهم قالوا: إن هارون كان أفصح من موسى؛ لأن موسى لم يعشْ مع بني إسرائيل ومع القبط كما عاش هارون، وذلك أنه عاش في أهل مدين قريبًا من عشرين سنة، فهارون كان في بني إسرائيل ومع القبط، فكان أفْصَحَ من موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقيل غير ذلك كما جاء عن مجاهد وغيره أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان قد اختبره فرعون لما كان صغيرًا عندما أخذَ بلحية فرعون، فجرها إليه فغضب فرعون، أراد أن يفْتِكَ به ويقتله، فخافت آسية على موسى، وقالت: اختبره، ضع له جمرة وتمرة، فإن أخذ التمرة فدونك فاقتله، وإن أخذ الجمرة، فإنه لا يفقه، ولا يعي، ولا يدري ما يصنع، قال: نعم أفعل فوضعت لموسى تمرة وجمرة، فأوحى الله إليه أن يأخذ الجمرة، فأخذها ووضعها على لسانه، فكان في لسانه شيء من الثقل لأجل تلك الجمرة، ولذلك يقول عنه فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: أن كلامه ليس فصيحًا.

وقال: ﴿وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾، وأن يكون ﴿هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ يكون نبيًا، ويكون لي ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ إذا كذبوني.

قال الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾، فاستجاب الله لموسى، ووهب له أخاه هارون نبيًا معه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ﴾.

فاتجه موسى عليه السلام إلى فرعون يدعوه إلى الله سبحانه وتعالى، ومعه هارون عليه السلام بعد أن جعله الله عز وجل نبيًا مِنّة منهُ عليهما.

وقد سمعت عائشة رضي الله عنها رجلًا يقول لأناس يسألهم وهم سائرون إلى الحج قال: من هو الأخ الذي له مِنّة عظيمة على أخيه، ولم يكن لأحد مِنّة مثلها؟ فسكت الناس، ولم يعرفوا الجواب، فنادت عائشة -وهي في هودجها-، فقالت: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأُوحي إليه فكان نبيًا، ولهذا قال الله له: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾،

عندها اتجه موسى إلى مصر مطمئنّ القلب، فقد كان رجلًا عاديًا ثمّ صار نبيًا رسوًلا.

ذهب موسى إلى أخيه هارون، وأخبره البشارة، وهي أن الله سبحانه وتعالى اختاره نبيًا معه، وأنهما مأموران بدعوة فرعون، قال الله جلّ وعلا: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تجبر وطغى، والطغيان هو مجاوزة الحد، ولذلك يقال: طغى الماء أي تجاوز حده: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

معية الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ هذه هي المعية الخاصة، وذلك أن معية الله جلّ وعلا لعباده تنقسم إلى **ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: معيةٌ عامة يشترك فيها الإنس والجن، بل والبهائم، ويشترك فيها البَرّ والفاجر، ويشترك فيها المسلم والكافر، وهي المعية العلمية، وهي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ وهذه معية لكل الخلق لا تميز لأحد فيها، ولا فضل لأحد فيها.

القسم الثاني: معيةٌ خاصةٌ بأوصاف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾، فكل تقي، وكل محسن، وكل صابر؛ فالله معه، فمن اتصف بهذه الصفات فالله معه، وهذه المعية فيها نصرة وتأييد ومحبة من الله سبحانه وتعالى.

القسم الثالث: المعية الخاصة بالأشخاص، كما في هذه الآية ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أي: يا موسى ويا هارون أنا معكما أنتما دون غيركما، وكما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: أنا وأنت فقط مع أن كفار قريش كانوا على باب الغار، لكن الله ليس معهم، وهذه معية خاصة بشخص معين، خَصّ الله بها موسى وهارون، وخَصّ الله بها محمدًا وأبا بكر، وهي تستلزم النصرة، والمحبة، والتأييد، والتوفيق من الله تبارك وتعالى.

المواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون:

ذهب موسى رابط الجأش قويًا، واثقًا بنصر الله له، فدخل على فرعون، ومعه أخوه هارون، فكانت المناظرة بينه وبين فرعون، قال موسى لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يدّعي أنه لا يعرف رب العالمين!

قال موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، فالتفتَ فرعون إلى من عنده قائلًا: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فاستنكر فرعون ذلك فموسى يقول: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وفرعون يدّعي الربوبية، ألست ربكم؟ ألست إلٰهكم؟ كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى﴾، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ هذا كلام غريب أسمعه اليوم، يدعي أن هناك ربًا غيري ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فالتفت إليهم موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وكأنه يقول لفرعون إن كنت ربًا؛ فأين آباؤك؟ أربٌّ وله أب؟ كيف يكون هذا؟ بل هذا ربك وربُّ آبائك الأولين وربكم أنتم أيها الجالسون عند فرعون ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فماذا قال فرعون؟ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

قال موسى ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فلم يجد جوابًا إلّا أن قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ هذا هو الجواب: منطق استخدام القوة وإظهار العضلات منطق الغاب.

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، وذلك أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان أسمر اللون، ليس بأسود، فأخرج يده، وإذا هي تتلألأ مثل القمر، لا برص فيها، بيضاء، وهنا قال فرعون: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فرعون يستشير من عنده! ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

وفي موضع آخر يقول الله تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال لموسى:﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

وكان مما قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

وهنا ذكر فرعون **ثلاثة أمور**:

الأمر الأول: ألم نربك فينا وليدًا؟

الأمر الثاني: أنك لبثتَ فينا من عمرك سنين.

الأمر الثالث: أنك فعلت فعلتك، وأنت من الكافرين.

يريد بذلك أن له مِنّةً على موسى عليه السلام، ويُذكّره بقتله للقبطي دون سبب، وعندها قال موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾، ما كنت رسولًا، وهذا كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: ضالًا عن الرسالة، ليس ضالًا بمعنى أنه كان كافرًا، فلم يكن نبيٌّ من الأنبياء كافرًا، وإنما كان ضالًا عن الرسالة، لا يعرف رسالة مَنْ سبقه، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾ قبل أن أُبعث فعلت هذه ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ لأني كنت أعلم أنكم ظلمة؛ لأني ما قصدتُ قتله، فكنتم ستظلمونني، ولذلك خِفْتُ منكم، ففررت وتركت مصر وأهلها.

ثم قال: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: بعد أن تركت مصر وهب لي ربي حكمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وهنا لأهل العلم قولان: ما معنى قول موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾؟ هل هو ينكر على فرعون أو يمتدحه بذلك الكلام؟ **قولان**:

القول الأول: لا فضل لك يا فرعون، فهذه النعمة التي تَمُنّها عليّ أنك ربيتني وليدًا ولبثت في بيتك؛ السبب في هذا أنك كنت تقتل الأطفال، وما كان لنا من سبيل إلا أن ألقتني أمي في اليمّ، تَمُنّ عليّ أنك ربيتني؟ أنت السبب؛ لأنك كنت ستقتلني لولا إلقائي في اليمّ، فهذا يكون على سبيل الإنكار على فرعون.

القول الثاني: أن موسى بهذه الكلمات يتلطف مع فرعون، كأنه يقول له: ربيتني وليدًا، ولبثت كثيرًا مِنْ عمري عندكم، وفعلت فعلتي ولم تقتلوني، فأكمل معروفك وأرسل معي بني إسرائيل، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

قال موسى لفرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا

الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

والآن تتدخل حاشية فرعون -بطانة السوء- بعد أن قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

قالت الحاشية: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، هذه الحاشية بدل أن تقول لفرعون لعله صادق، لعله رسول، قالت: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أمهلهما ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، فالتفت إليهم موسى، وقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ﴾، وهنا تكلم فرعون، وتكلمت الحاشية معه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد أن قامت الحجج على فرعون وظهر له أن موسى عليه السلام ليس بساحر، قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين حتى يأتوه بكل ساحر عليم، وواعد موسى، وقال له: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾، يعني: وسط، وسط المدينة لا جنوب، ولا شمال، ولا شرق، ولا غرب، وهذا هو ما أراده موسى عليه السلام حتى يتيسر له أن يدعو الناس جميعًا، فوقع فرعون في ذلك، وأمر بجمع الناس؛ لأنه ظن أن الذي جاء به موسى سحر وغره أصحابه وحاشيته، وقالوا: نأتيك بكل ساحر عليم، ففرعون وجدها فرصة حتى يبطل ما جاء به موسى فقال لموسى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ وسط يحضره الجميع لا يعجز عنه أحد، ولا يتركه أحد.

قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ مكان وسط، ووقت وسط كما تريد، وليكن أيضًا في يوم الزينة، يوم العيد حيث جميع الناس يجتمعون، جميع الناس فارغون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: يكون هذا الوقت في الضحى وفي النور، يجتمع فيه جميع الناس، قال فرعون: نعم، وقال موسى: نعم.

المواجهة الكبرى:

الله سبحانه وتعالى ذكر السحرة، وذكر أنهم أتوا بكل ساحر عليم، لكن لم يذكر لنا الله سبحانه وتعالى عددَ السحرة أبدًا، والمهم أنهم أحسن السحرة عندهم، وليس فيهم حسن.

وأول ما جاء السحرة اتجه إليهم موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أنتم تعلمون أن هذا سحر، أنتم تعلمون أنكم ضالون مضلون، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن فعلتم ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾، سحتُ الشيء استئصاله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ لما قال لهم هذا الكلام صار بينهم نزاع على ماذا؟ نزاع هل هذا ساحر أو رسول؟

قالوا: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ ما هي النجوى التي أسروها؟ علمُها عند ربي سبحانه وتعالى، لكن يقول أهل العلم: إنهم ربما أسرّوا أنه إن كان هذا الرجل صادقًا -يعنون موسى- وأنه نبي فسنتبعه، أو ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ أنهم ترددوا، هل يُلقون أو لا يُلقون؟ حتى لا يفضحهم، وقيل: إن كان هذا نبيًا؛ فإن الله سيظهره، وإلا ظهرنا عليه، والله أعلم ماذا أسروا، لكنهم تنازعوا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾.

ثُمَّ التفتوا إلى موسى، وقالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ يخيرونه كأنهم يثقون بأنفسهم، تريد أن تُلقي أم تريد أن نلقي نحن، لا يختلف عندنا الأمر، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ وهذا يبين أيضًا ثقته التامة بالله عز وجل؛ لأنه يعلم أن الله معه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أنتم تأتون بالسحر، وأنا آتي بالمعجزات، وآتي بآيات بينات ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، الله معي وأنتم مَنْ معكم؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وخوفوهم، تصوروا السحرة كلٌ يُلقي عصاه وحبله، فترى حيات تسعى، أصاب الناس رهبةٌ عظيمةٌ وخافوا خوفًا شديدًا ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أوهموهم أن هذه الحبال، وهذه العصي انقلبت إلى حيات، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خوفوهم بكثرة الحيات، ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ بَيَّن الله أن السحر عظيم، ولكن الذي أبطله أعظم.

قال الله تبارك وتعالى عن فرعون لما أمره موسى -صلوات الله وسلامه عليه- أن يجمع الناس في يوم الزينة: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ اتّفِقوا على كلمة واحدة، لا تتفرقوا، اتركوا النزاع الآن، لا وقت للنزاع، ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا﴾ حتى يكون هذا أرهب لعدوكم، وأرهب للناس، كلكم تلقون في وقت واحد ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ استعلوا بما عندكم، لماذا؟ لأن كل الناس يجتمعون الآن، ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ حتى موسى خُيّل إليه أنها تسعى، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ خيفة من ماذا؟

قالوا: أوجس في نفسه خيفة أن يتأثر الناس بهم.

وقالوا: أوجس في نفسه خيفة ألا ينتظر الناس ما يظهر الله على يديه.

وجاء الجواب من الله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أنت أعلى منهم، لا يغرك كثرتهم، لا تغرك حبالهم، ولا عصيهم، ولا تخييلهم، ولا من يساندهم، أنت واحد، ولكنك الأعلى، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾، أنت معك معجزة، معك آية بينة، معك برهان، وهؤلاء معهم السحر، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وهذا في زمن موسى عليه السلام وفي زمننا وإلى يوم القيامة؛ الساحر لا يفلح؛ لأنه عدو لله، ومن عادى الله هل يفلح؟! ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ كُلَّ الذي يأفكون، حية واحدة ابتلعت جميع العصي، وموسى عليه السلام انقلبتْ عصاه إلى ثعبان حقيقي؛ لأن الله هو الوحيد -سبحانه- الذي يغير الأشياء من حقيقة إلى حقيقة أخرى، لكن غير الله لا يملك ذلك، وإنما يملكون أن يسحروا أعينَ الناس، كما قال الله لموسى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ إذًا حقيقتها أنها لا تسعى، وإنما يخيل إليهم ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾، فكانت المفاجأة:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أكْفَر الناس بعد فرعون سجدوا لله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأنهم علموا أن الذي جاء به موسى عليه السلام ليس بسحرٍ، فهم أصلًا تنازعوا بينهم، وأسروا النجوى -والله أعلم بما أسروا-، لكن لما رأوا الحق ورأوا عصا موسى أنها فعلًا انقلبت إلى ثعبان حقيقي ابتلع عصيَّهم، وابتلع حبالَهم؛ عرفوا أن موسى محقٌّ صلوات الله وسلامه عليه.

نقاش فرعون مع السحرة:

والآن تعالوا نقرأ النقاش الذي كان بين فرعون والسحرة لما أتى بهم فرعون، وقال لهم: إن موسى عنده عصا تنقلب إلى حية، ويدخل يده ويخرجها بيضاء، فماذا أنتم صانعون؟ قالوا: نظهر عليه ولكن ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ﴾ قال: نعم؛ لأنه صُدِمَ بما أتى به موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أكدها **بأربعة تأكيدات:**

الأول: أكدها بنعم.

الثاني: أكدها بـ «إنّ».

الثالث: أكدها باللام.

الرابع: جعلهم من المقربين.

فلما ألقى موسى عليه السلام عصاه، وظهر الحق، وذلك أن الحق أبلج، والباطل لجلج، لا يبقى، فأدركوا حقيقة الأمر، وأدركوا أن الذي مع موسى نبوة وليست سحرًا ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾، فصُدِمَ فرعون وقال: سحرتي وعمدتي يؤمنون؟! ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ قال: موسى هو الذي علَّمكم السحر، وهو يدري أن كلامه غير صحيح؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ إنه يدري أن موسى ولدته أمه، ثم أخذه وتربى في بيته سنين، ثم فر والآن رجع، فمتى علمهم السحر؟! ومتى التقى بهم؟! ومتى رآهم؟! خاصةً إذا علِمنا أن السحرة هؤلاء جاؤوا من كل فجٍّ عميق، ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ حُشِروا من كل مكان، من كل صوب، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ كل واحد جاء من مدينة، فمتى التقى

بهم موسى؟! ومتى علّمهم السحر حتى يقول هذا الكلام؟! لكنه كلام المصاب، أُصِيب في مقتل فلم يدْرِ ماذا يقول، ولم يدْرِ ما الذي يخرج من رأسه، ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ كيف تؤمنون به قبل أن آذن لكم؟ فكان الجواب من السحرة: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ افعل ما تشاء، ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وفي موضع آخر: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ * إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، ثم قالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فليس من السهل على إنسان كان يدعي الألوهية أن يذعن ويرضى ويسكت عن مثل هذا الوضع، فيصير عبدًا كغيره من العبيد، بعد أن كان يقول: إن الناس كلهم عبيد لي، الآن أنا أصير عبدًا لغيري، أصير عبدًا لله؟! ما استطاع أن يتخلى عن جميع الامتيازات التي كان يستأثر بها من دون الناس.

هل قتل السحرة أو لا؟ **روايتان:**

الرواية الأولى: أنه قتلهم وصاروا شهداء.

والرواية الثانية: أنه تركهم.

المهم أنه ترك موسى عليه السلام وظل موسى بعد ذلك يدعو في مصر، وهنا فرعون أحبَّ أن يلقي آخر حباله، فنادى هامان، فقال: ﴿يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ ٱلسَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ كاذبًا في ماذا؟ يظنه كاذبًا أن له إلٰهًا غيره، أو كاذبًا أن الله في السماء، على كل حال الذي كان ينكره فرعون أن يكون إلٰه غيره، ولذلك قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، وكان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى﴾، ويقول لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ إذًا هو كان يدعي الألوهية، ويدعي الربوبية، وهل بني له الصرح؟ وهل صعد على ذلك الصرح؟ لا يُعلم، الذي يُعلم أنه قال لهامان: ابن لي الصرح.

مؤمن آل فرعون:

قام رجل مؤمن من آل فرعون، فقال كلمة حق عند سلطان جائر، ولا شك أن فرعون كان جائرًا، قال المؤمن: ﴿يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ﴾، مقارنةٌ عظيمةٌ وعجيبةٌ، أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار: أدعوكم إلى عبادة الله الذي يستحق أن يُعْبَد، وتدعونني لأن أشرك به، وأكفر به، أدعوكم إلى الجنة، وتدعونني إلى النار، ولذلك ختم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ متى؟ يوم القيامة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾، وهكذا يجب على المؤمن أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ويبين ما عنده.

أمّا فرعون فهل كان مصدقًا أنه إلٰه وأنه رب؟ أو كانت مجرّد دعوى، هو ذاته لا يصدقها؟ الصحيح أنها مجرد دعوى، وفي قرارة نفسه لا يؤمن أنه إلٰه، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عما يجول في خاطر فرعون، وما يدور في نفسه، فقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: أنفسهم من الداخل كانوا يعتقدون عقيدة جازمة أن موسى صادق، وأنهم مبطلون، ولكنه العناد والكبر، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: جلّ المعاصي وجل الأسباب التي تُدخل الناس النار ترجع إلى العناد والكبر، وفرعون هذا جمع الأمرين: جمع العناد والكبر معًا، ولذلك لما أدركه الغرق. كما سيأتينا. قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، إذًا هو في حقيقة نفسه كان يدرك وجود إلٰهٍ آخر غير ما يدعي هو من الزور والبطلان.

اجعلوا بيوتكم قبلة:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فأنت يا موسى ومعك أخوك هارون ﴿تَبَوَّءَا﴾ أي: اختارا لقومكما بمصر بيوتًا، اسكنوا في مصر أنتما ومن آمن معكما من بني إسرائيل، ﴿وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، استقبلوا القبلة في بيوتكم، ولم يقل لنا هنا ما هذه القبلة، هل هي بيت المقدس؟ أو أن القبلة مكة؟ ما ذكر لنا، ولكن ذكر: ﴿وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، لكن يجب أن نعلم أنها كانت صلاة، وفيها ركوع وسجود، ولكن الله أعلم بكيفية هذا الركوع، أو عدد الركعات، أو عدد الركوع، أو عدد السجود.

فرعون يهم بقتل موسى عليه السلام:

تأثر فرعون كثيرًا بالذي حدث، وبالهزيمة التي وقعت عليه، فلم يجد بُدًّا من تهديد موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال لمن معه -وكأنه يستشيرهم-: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، وكأن هناك من يمنعه، فقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ هذا الكلام يقول عنه أهل العربية: هذا كلام يُضحك الثكلى، والثكلى هي: المصابة بموت أبيها أو أمها أو زوجها أو ولدها، وهذه لا تضحك؛ لأنها مهمومة ومحزونة، وأحيانًا بعض الكلمات تُضحك الثكلى؛ لغرابتها.

ففرعون يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لماذا تريد أن تقتله؟ قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، تصوروا موسى يُظهر في الأرض الفساد، وفرعون مصلح! كما قال فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وكذلك مخطئ من ظنّ يومًا أن لفرعون دينًا، وأنه يريد أن يصلح، وأنه يريد أن يهديهم سبيل الرشاد، وهل فرعون كان وحده أم كان معه من يدفعه دفعًا إلى هذه الأمور؟

والجواب: كانت معه بطانة السوء كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ بطانة سوء لرجل سيء، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، كيف تقبل أنت يا فرعون هذا؟ وذلك عندما سكت

عن موسى، هؤلاء هم الذين دفعوه إلى قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

وبلغ هذا الكلام موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، أن فرعون يريد قتله، ويريد قتل من معه ممن آمن، فماذا قال لقومه؟ قال: ﴿ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إذًا بماذا أمرهم موسى؟ أمرهم بالصبر، فالإنسان يصبر على أمر الله تبارك وتعالى وقَدَرِه.

ثم قال لهم موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

موسى عليه السلام يدعو على فرعون ومَنْ ناصره:

وبعد أن هدّأ موسى -صلوات الله وسلامه عليه- من روعهم، وطمْأنهم: التفت إلى ربه يدعوه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، دعا عليهم موسى -صلوات الله وسلامه عليه- فقد آذوه، وآذوا المؤمنين، آذوهم قبل ولادة موسى بذبح الأبناء والاستعباد، وآذوهم بعد بعثة موسى -صلوات الله وسلامه عليه- أيضًا بالتقتيل، ولذلك دعا موسى عليه السلام على فرعون، وأمَّن هارون بقوله: آمين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والآن فرعون قرر القتل لموسى -صلوات الله وسلامه عليه-.

هنا يقول مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ ليس مدعيًا، وإنما جاءكم ببينات، ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، قال أهل العلم: إن أبا بكر أفضل منه؛ لأنه ما كان يكتم إيمانه، ولكنه كان يظهره، أما مؤمن آل فرعون فهو يكتم إيمانه، ولذلك ابتدأ بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ أنه نبي ومرسل من عند الله؛ ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يصبكم خير من هذا الرجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وإن كان موسى مسرفًا على نفسه بدعوى الباطل، وكان كذابًا؛ فإن الله لا يهديه، وأنتم ترون خلاف ذلك، الله هدى موسى ونصره عليكم، وأظهر الآيات التي عنده على السحر الذي عندكم،

فالتفت فرعون إلى الملأ، ثم قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

المهم أن فرعون لما سمع كلام هذا الرجل وخشي أن يؤثر كلامه في الناس قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: في قتل موسى عليه السلام، فردَّ عليه المؤمن، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ كلام موزون قاله هذا الرجل لقومه، يحذرهم في صنيعهم، ويحذرهم من ضلالهم، وهَدَأ فرعون، وما قتل موسى بعد هذا الحوار وسماعه هذا الكلام.

نزول صنوف من العذاب على آل فرعون:

وعاش موسى عليه السلام في مصر فترة، ولكن فرعون ظلَّ يُقَتِّل أبناءهم ويؤذيهم، فسلط الله تبارك وتعالى على آل فرعون آيات، سلَّط عليهم الجدب، والقحط، ونقص الثمرات لعلهم يرجعون عن غيهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: من الابتلاءات التي يبتليهم الله بها ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فأغلقوا الباب أمام موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، لن نؤمن مهما تأتنا بآية لتسحرنا بها، فهم مصرون على ما هم عليه من الباطل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وهذه الابتلاءات، هي:

الطوفان: الماء خرج من النيل، فأغرق مزارعهم وبيوتهم.

الجراد: أرسل عليهم الجراد، فكان يأكل جميع محاصيلهم، ويدخل عليهم في بيوتهم حتى تأذوا منه أذية عظيمة.

القُمَّل: هو النمل الصغير الأصفر، وقيل: هو ما نسميه نحن بالقَمل نوع من الحشرات،

وقيل: غير ذلك، فصار في كل مكان حتى تأذوا منه.

الضفادع: تنام معهم على فرشهم في بيوتهم، فيفتحون القِدر تخرج لهم الضفادع، ويفتحون الدرج والخِزانة يجدون الضفادع.

الدم: يفتحون الماء ينزل لهم الدم، وكان الدم في ثيابهم، وفي فرشهم، وفي مياههم، وفي النهر، كل شيء انقلب إلى دم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ واحدة تلو الأخرى، وكلما جاءتهم آية ذهبوا إلى موسى: ادعُ الله أن يُذهب هذه ونتوب ونستغفر، فيدعو الله، فتذهب، فيعودون لما كانوا عليه، ثم تأتيهم الثانية، فيذهبون إلى موسى، وهكذا حتى جاءتهم تلك الآيات من الله جميعًا، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: العذاب ﴿قَالُوا يَامُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ أي: واحدة من التي ذكرنا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ اختلف أهل العلم في تحديدها:

فقال بعضهم: هي سنوات القحط التي أصابتهم، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، هذه التسع آيات البينات.

موسى عليه السلام يقرر الخروج من مصر:

وظل موسى يدعو إلى الله تبارك وتعالى في مصر إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه موسى أن يخرج من مصر، أو أن فرعون قرَّر أن يقتل موسى، المهم أن موسى خرج بمن معه -صلوات الله وسلامه عليه-، ولحق بهم فرعون يريد قتلهم أو ردهم إلى بلاده، وكانوا قد وصلوا إلى البحر، وفرعون خلفهم، وتفاقم الأمرُ، واشتد الخطب، واقتربَ فرعون وجنوده حتى صار قاب قوسين أو أدنى منه، وزاغتِ الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بموسى الظنون، أنت قلت: سننجو وستورثنا الأرض.. الآن سيهلكنا فرعون ومن معه، ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ انتهى الأمر، فقال موسى ذلك الرجل الواثق بربه وبوعده سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أطلقها صلوات الله وسلامه عليه مدوية صكَّتِ الآذان هم يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

وموسى الثابت الواثق أمامه البحر وفرعون خلفه ويقول: ﴿كَلَّا﴾، لن يحدث شيء مِنْ هذا، لن تُدركوا، كيف؟! هل سنطير؟! سنختفي؟! تنشق الأرض وتبتلعنا؟! ماذا سنفعل؟ وليس هو الذي يفعل، بل الذي يفعل هو الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فموسى عليه السلام لم ينسَ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، ولذلك باطمئنان تام وهو لا يدري كيف سيحدث الأمر؟ لكن يعلم ويدرك علمًا يقينيًا ثابتًا جازمًا أن فرعون لن يصل إليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ﴾.

انفلاق البحر لموسى عليه السلام:

بعد ذلك جاءت البشرى من الله تبارك وتعالى مباشرة ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فمن كان يتصور أن يحدث مثل ذلك؟ ما تصوره أحد، يأتي إلى البحر، هذا البحر العظيم، فيقول تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضرب البحر بعصاه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ طود مِنْ هاهنا، وطود مِنْ هاهنا، أرض يابسة وسط البحر.

يقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: موسى ومَنْ كان معه، فما كان معه إلا نفر قليل هم الذين آمنوا بموسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: مِنْ بعدهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: وقت الشروق وجهة المشرق ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ كان موسى -صلوات الله وسلامه عليه- كما يذكرون هرب إلى ساحل البحر الأحمر، وكان إهلاك فرعون في العاشر من محرم، ولذلك لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وجد اليهود

يصومون العاشر مِنْ المحرم، فقال لهم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون، قال: «نحن أحق بموسى منكم» فأمر بصيامه صلوات الله وسلامه عليه[1].

انفلق البحر فلقتين، وبينهما أرض يابسة، وعبر موسى عليه السلام ومَنْ معه، فأتبعه فرعون، فأراد موسى أن يضرب البحر حتى لا يدخل فرعون فيه، فقال الله له: اتركه أنت تريد شيئًا، ونحن نريد شيئًا آخر يا موسى، ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ اتركه هادئًا لا تضربه، ولا تأته ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، فلما تجاوز موسى البحر؛ قال الله عز وجل: الآن اضربه، فلما ضربه كان فرعون وقومه في الوسط، فغرق فرعون ومَنْ معه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ الآن رأى فرعون الماء يأتيه من كل صوب، وأدرك أنه سيغرق، فماذا قال؟ ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: أنا الآن أسلمت، فجاءه الجواب من الله -جل وعلا-: ﴿آلْآنَ﴾؟! الآن تسلم؟ أين أنت قبل قليل؟ أين أنت لما جاءك موسى بالبينات؟ الآن؟ لما رأيت الموت؟ الآن لما أدركك الغرق؟ ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ فقط لماذا؟ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ لا لأجلك أنت، ولكن لأجل غيرك؛ لأنهم كانوا يقولون عنه: إنه إلٰه، فإذا غرق يقولون: لم يغرق، واختفى فهو إلٰه، وسيأتي بعد ذلك، ولكن الله سبحانه قال: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرجك جثةً ببدنك حتى يعلم الناس جميعًا أنك لست بإلٰه، ولكنك مجرد عبد، شئتَ أم أبيتَ، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ علامة حتى لا يدعي أحد بعدك الإلٰهية، أنت يا من كنتَ تدعي الإلٰهية نخرجك جثة نتنة منتفخة من الماء ليراك الناس وليعرفوا قدرك، وليعرفوا قدرهم عندما يتعاملون مع الله سبحانه وتعالى.

اجعل لنا آلهة:

وتجاوز موسى عليه السلام ومن معه البحر بعد أن خرجوا من مصر ووقعت أحداث كثيرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ

١ أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

﴿أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ مرّوا على قوم من عبدة الأصنام بعد أن جاوزوا البحر، ﴿قَالُوا يَامُوسَى ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ هذا أول السيل، وأول السيل قطرة، ولكنها قطرة قبيحة، ﴿ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أو ليس لكم إله؟! أليس إلٰهكم الله -جل وعلا- الذي نجاكم الآن من فرعون، ﴿ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة الأصنام الذين مررتم عليهم ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ وهذه هي أول قضية.

إذًا أول قضية قالها بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ متى؟ بعد نجاتهم من فرعون مباشرة قبل استقرارهم، وعنَّفهم موسى عليه السلام، فسكتوا، ولكن ما في قلوبهم إلى الآن يرتج عليهم كما يرتج المرجل.

ميعاد موسى عليه السلام مع ربه:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ذهب موسى ليبتعد عن بني إسرائيل ليناجي ربه جل علا، وكان قد صام ثلاثين يومًا ثم بعد ذلك أفطر حتى تذهب رائحة الفم مما يخرج من المعدة بسبب طول الصيام، فلما جاء لميقات ربه تبارك وتعالى، قال الله له: لماذا أفطرت يا موسى؟ قال: حتى تتغير رائحة فمي، قال: أو ما علمت أن رائحة فم الصائم أفضل عندي من ريح المسك؟ ارجع صم عشرة أيام ثم تعال، فرجع موسى وصام عشرة أيام، وهي مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ولما أراد أن يخرج ترك أخاه هارون عليه السلام في بني إسرائيل، وقال له: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، وذلك أن موسى عليه السلام هو صاحب الرسالة، وأما هارون عليه السلام فهو تابع له، وإن كان نبيًا كريمًا مع موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولكن موسى هو الأصل، وهو من أولي العزم من الرسل، ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا ليس بعيب أن يقول الرجل لرجل صالح: «أصلح»، كما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وليس في هذا منقصة لهارون لأن ﴿ٱلذِّكْرَى تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

مجيء موسى عليه السلام لميقات ربه سبحانه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ يقول أهل العلم: لما سمع لذة الخطاب اشتاق إلى رفع الحجاب؛ أي: لما سمع كلام الله اشتاقت نفسه لرؤيته -جل وعلا-، وذلك أن أعظم نعيم يُعطاه المؤمنون في الجنة رؤية الله تبارك وتعالى، فموسى اشتاق إلى رؤية الله، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ لا تستطيع أن تراني، وذلك أن الله تبارك وتعالى أعطاه قوة بقدر، وهذه القوة لا يستطيع من خلالها أن يتحمل رؤية الله جل وعلا وذلك أن الله جل وعلا كما أخبر عنه نبيه ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره»[1].

فالله عز وجل رحمةً بموسى قال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أنا منعتك رحمة بك، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، جبل من حجارة يصير دكًا لماذا؟! لأن الله جل وعلا تجلى له، لم يتحمل، فكيف بك أنت أيها الإنسان الضعيف كيف تتحمل ذلك؟

قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ سجد لله عز وجل، وقيل: أُغمي عليه، صُعِق لما رأى الجبل اندك بهذه السرعة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِنْ أني سألتك هذا في هذه الدنيا.

رجوع موسى عليه السلام إلى قومه:

خرج موسى إلى ميقات ربه ثم رجع بعدها إلى قومه فماذا رأى؟ يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

---

١ أخرجه مسلم (١٧٩).

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

فهذه الآيات ذُكرت في قصة موسى مع قومه وعبادتهم للعجل، وهذا من فساد رأيهم، وعطب فكرهم.

عبادة العجل:

خرج موسى لميقات ربه وترك هارون عند قومه، فماذا فعلوا؟ جاءهم السامري، وهو رجل ليس من بني إسرائيل، وإنما التحق بهم، والذي حصل أنهم لما هربوا من فرعون كان

بعض الناس قد سرق ذهبًا من الأقباط؛ لأنهم قالوا: طالما سنخرج نسرق ذهبًا فسرقوه، ثم لما تجاوز موسى وقومه البحر، وإذا هذا الذهب معهم، وهو معنى قولهم لموسى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ هو الذهب الذي سرقوه، وقد أمرهم موسى عليه السلام بإلقائه في اليم؛ لأنه لا يحل لهم، وقال: كيف تستحلونه؟ فألقوا الذهب، فقام السامري، وجمع الذهب كله، وهذا يدل على أن الذهب كان كثيرًا، فصهره ثم صنع منه عجلًا، وهذا العجل صنعه بطريقة بحيث يدخل الهواء من دبره، فيخرج صوت من فم هذا العجل، فتعجبوا، وقالوا: ما هذا؟ عجيب هذا العجل! فقال لهم السامري: هذا إلٰه موسى الذي ذهب ليلتقي به، وقال: هذا إلٰه موسى خاصة أن موسى قال لهم: ثلاثون يومًا أذهب وآتي، فتأخر موسى عشرة أيام، وبعد أن تجاوز موسى الثلاثين أخرج السامري العجل، فقالوا ما هذا العجل؟ قال: ضاع موسى نسي إلٰهه، وسيأتي موسى ويقول لكم: هذا إلٰهي. قال هارون اتقوا الله ليس هذا إلٰه موسى، هذا عجل، هذا صنم، فلم يلتفتوا إلى هارون، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾، فما كانوا يخافون من هارون؛ لأنه هين لَيِّن، ويخافون من موسى كثيرًا؛ لأنه كان شديدًا عليهم، واستمروا على عبادة ذلك العجل عشرة أيام، والله -جل وعلا- قال لموسى: إن قومك اتخذوا العجل من بعدك، والآن ارجع إليهم تجدهم يعبدون العجل ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، فرجع موسى إلى قومه غاضبًا ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ والأسف هو أشدُّ الغضب يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وآسفونا أغضبونا، ولما دخل عليهم؛ وجدهم يعبدون العجل، فألقى الألواح التي فيها كلام الله، ولكن بدون شعور، وذلك مما رآه من فعل بني إسرائيل مع العجل، فالتفت فوجد هارون مع القوم، والعجل يُعبد، فقال: أين أنت يا هارون من هذا؟ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ من الغضب كيف عُبِدَ العجل؟ ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ يا أخي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾، وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، خشيت أن تقول لِمَ لَمْ تنتظرني؟ فانتظرتك حتى تأتي، فعذر أخاه، وذهب إلى قومه، فقال لهم: لماذا عبدتم العجل؟ أعجلتم العذاب؟ أتريدون أن يُنزل الله عليكم العذاب؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا

حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ نحن ألقينا الزينة التي سرقناها كما أُمرنا، ثم بعد ذلك وجدنا هذا العجل، وقالوا: إنك نسيت ربك، وهذا ربك تركته، فعبدناه على هذا الأساس، والسامري هو الذي صنع لنا هذا العجل.

ولننظر كيف كانوا مع هارون فقد استضعفوه وكادوا أن يقتلوه، والآن مع موسى هم يخافونه، وقالوا: إنه السامري، فجاء بالسامري فقال: ما أمرك؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: رأيت أشياء ما رآها الناس، وما هذه الأشياء؟ قال أهل العلم: كان جبريل على فرس لما أغرق الله عز وجل فرعونَ وقومَه في البحر، وموسى عليه السلام لما جاء ليضرب بعصاه في البحر بعد أن عبروا قال له جبريل: دعهم يتقدمون لهم شأن آخر، فلما نجى الله عز وجل موسى ومن معه، وكان معهم جبريل، وهنا السامري انتبه أن هذا ليس إنسانًا عاديًا رغم أن جبريل كان بصورة بشر، فقال: هذا يأمر موسى ويطيعه موسى مَنْ هذا؟ فلما وضعت فرس جبريل حافرها على الأرض جاء وأخذ أثرًا من هذا المكان وجعله في العجل فظهر له الصوت، ولذلك قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وهو جبريل وفرسه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهو جبريل وأثر قدم فرسه ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في جسد العجل؛ فكان الصوت ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

فعرف الآن موسى عليه السلام قصة العجل، إذًا هذا الصوت الذي يخرج من العجل بسبب ما أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام، فقال له موسى: أنت الآن لك عقوبة خاصة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ سيكون لك موعد وعذاب عند الله جل وعلا، وهذا العجل الذي تزعم أنه إلٰه سأحرقه حتى يعلم الجميع أنه ليس بإلٰه ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، ثم أحرق العجل، ثم نسفه في اليم -صلوات الله وسلامه عليه-، وانتهى أمر العجل، وتابوا، ورجعوا، وكما أن المعوج لا يستقيم؛ كذلك هؤلاء القوم فيهم اعوجاج شديد.

بنو إسرائيل يُؤْمَرون بقتل أنفسهم:

قالوا تبنا يا موسى قال: ﴿فَٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ هذه التوبة عند الله تبارك وتعالى، فجاءتهم ظلمة، فصار بعضهم يقتل بعضًا، حتى قيل: إنه قُتِلَ منهم قريب من سبعين ألفًا، ورفعت

الظلمة، وقالوا: يا موسى هل تاب الله علينا؟ قال تاب الله عليكم، ولكن الآن سأختار منكم جماعة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾، أخذ موسى سبعين رجلًا مِنْ خيرة بني إسرائيل، وذهب بهم وقال: انتظروا هنا حتى أناجي ربي، قالوا: أسمعنا كلام ربك، لابد أن نسمع معك، فقال: تعالوا معي، فاقترب موسى، ثم كلم الله موسى، فسمعوا الكلام، فقالوا: يا موسى مَنْ هذا الذي كلمك؟ قال: ربي، قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهؤلاء أحسن الناس في بني إسرائيل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فلما رأى موسى السبعين هلكوا، وهم أحسن الناس في بني إسرائيل؛ قال: يا رب ماذا أقول عندما أرجع لبني إسرائيل؟ أقول لهم: إن الله أهلك السبعين؟ اللهم أحيهم واقبل توبتهم، وبدأ يدعو الله تبارك وتعالى ويستجير به سبحانه وتعالى، فاستجاب الله لموسى وأحياهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فأحياهم الله تبارك وتعالى مرة ثانية.

بنو إسرائيل والتيه:

التيه فترة من الزمن أخبر الله تبارك وتعالى بها عن بني إسرائيل، وذلك لما أمرهم موسى أن يدخلوا بيت المقدس، فرفضوا ذلك، وقالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ ضرب الله عليهم التيه يمشون لا يدرون أين هم لمدة أربعين سنة، فجاعوا، فرزقهم الله المنَّ والسّلْوى.

والمنُّ: حبات بيضاء من السماء يأكلها الشخص، فيجد فيها لذة.

والسّلْوى: العسل، وقيل: السلوى هو: بعض الطيور كالسمان بدون تعب وهم جلوس يأتيهم المنّ والسّلْوى، فماذا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ مَللنا من المنّ والسّلْوى، إذًا ماذا تريدون؟ ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ هم عندهم المنّ والسّلْوى ويريدون البصل، والبقل، والعدس، والثوم، والقثاء، فقال موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ وليس مصرَ الدولة المعروفة وإنما مصر من الأمصار يعني: هذه الأطعمة التي تريدون موجودة في كل مكان، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وهذا لتَعنُّتِهم وعنادِهم، وكذلك لما صنعوا بموسى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ

﴿ٱلطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فهذه أمة غريبة للغاية، الآن جاءهم، وقال: خذوا التوراة. قالوا: لا نأخذ التوراة، فنتق الله عليهم الجبل -أي رفعه-، وصار معلقًا في الهواء. قالوا: سمعنا وعصينا! قال: أُنزل عليكم الجبل؟ قالوا: الآن سمعنا وأطعنا.

قصة البقرة:

ثم حدث في بني إسرائيل أن وجدوا قتيلًا، ولم يدروا من الذي قتله، فأمسكوا بشخصٍ ظنوه هو القاتل، فقال قائل منهم: هل تعرفون أن هذا هو القاتل لتتهموه؟ عندكم موسى اذهبوا إليه هو نبي وسيعلم، وهنا إما أنهم سألوا موسى على سبيل الصدق أو أنهم سألوه على سبيل الاستهزاء والسخرية؟ فجاؤوا إلى موسى، وقالوا: يا موسى قُتِلَ لنا قتيل فمن الذي قتله؟ وموسى لا يعلم الغيب صلوات الله وسلامه عليه، فالذي يعلم الغيب هو الله سبحانه وتعالى قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يخبرنا مَن الذي قتل قتيلنا؟ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قالوا: نقول لك قتل قتيلنا، وتقول اذبحوا بقرة! ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتسخر منا؟

فقال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ قال: أرأيتم مني هذا؛ كم سنة عشتُ معكم، فهل مرة سخرت منكم؟ هل وقع مني هذا لكم من قبل؟ فقال لهم: اذبحوا بقرة، ولماذا بقرة؟ لماذا لم يكن حملًا أو شاة أو أسدًا أو نمرًا لماذا بقرة؟ لأنهم عبدوا العجل، فحتى يخرج حب العجل من قلوبهم.

قال الله تبارك وتعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ لا هي كبيرة، ولا صغيرة، فهي وسط ﴿فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ قالوها: زِدْنا مِنْ صفاتها، هذا لا يكفي، فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، الآن نبحث عنها.

قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلو ذبحوا أي بقرة لكانوا قد نفذوا الأمر،

ولكنهم تعنّتوا، أي بقرة تُذبح؟ قال لهم: لا فارض، ولا بكر، شدّدوا على أنفسهم وتعنتوا، فقالوا: ما لونها؟ قال: صفراء، ولكن فاقع لونها تسر الناظرين، فوجدوا مجموعة قليلة من الأبقار تنطبق عليها هذه الصفات، فقالوا بعد ذلك: أخبرنا أيضًا عن صفات هذه البقرة، قال: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ ليست مذللة، ولا تحرث الأرض، فهي بقرة مذللة، ﴿وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا تعمل بسقي الزرع.

وقيل ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: لا عيب فيها ﴿قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وجدوا الأوصاف التي يبحثون عنها، ولأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عز وجل عليهم، فقال صاحبها بعد أن زاد فيها أكثر من مرة: لا أبيعها حتى آخذ وزنها من الذهب، فجمعوا ذهبهم كله، ووزنوها له وأعطوه، فلما أعطاهم البقرة؛ أخذها موسى -صلوات الله وسلامه عليه- فذبحها، ثم أخذ جزء من البقرة، والله أعلم ما هو؟ قيل الذراع، وقيل الفخذ، المهم أنه أخذه، وضرب به الميت، فقام حيًا بقدرة الله عز وجل، وقال موسى: الآن هو الذي يخبركم مَنْ الذي قتله؟ فقام المقتول بين أظهرهم، وقال قتلني فلان، فأخبر بقاتله ثم مات.

اذهب أنت وربك فقاتلا!

أمر الله تبارك وتعالى موسى أن يقول: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ على الأرض بعد أن كانوا مستعبدين مضطهدين صاروا ملوكًا، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾، ثم بعد كل هذا أمرهم بأمر، فقال: ﴿يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، وهي بيت المقدس، وكانوا قد طردوا منها، فأمرهم أن يدخلوها، وهذا الجهاد هو جهاد الدفع -يعني دفع الكفار عن أرضهم-، وأما جهاد الطلب؛ فلا يكون إلا في أمة محمد ﷺ.

فالجهاد نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب.

وجهاد الدفع عند كل الأمم تدافع عن نفسها، وأما جهاد الطلب -وهو نشر الدعوة- فلم يكن إلا في أمة محمد ﷺ، ولذلك كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة والنبي ﷺ هو الذي بُعِثَ إلى الناس كافة، يجاهد ويخرج من بلاده إلى بلاد أخرى حتى ينشر الله الإسلام على الأرض كلها.

فهنا أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَامُوسَىٰ﴾، ولم يقولوا: يا نبي الله، ولم يقولوا: يا رسول الله، وإنما نادوه باسمه، وهذا سوء أدب منهم مع موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، ثم قال الله تبارك وتعالى مبينًا أنه ما يزال فيهم صالحون ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ فقط، حتى إنه قال البعض: هذان الرجلان أحدهما: نبي، وهو: يوشع بن نون، والثاني: رجل صالح، وبعضهم قال: إنهما هارون ويوشع عليهما السلام، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تبارك وتعالى ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما أن وفقهما لهذه المقولة ﴿ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾، وكأن قوم موسى ما سمعوا شيئًا، فقالوا ثانية: ﴿يَامُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ تكلم هذان أو لم يتكلما ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، ويا ليتهم سكتوا، لكنهم زادوا، فقالوا كلمة الكفر: ﴿فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، فبعد كل هذا الذي رأوه من موسى، ومن الله سبحانه وتعالى؛ يقولون: ﴿فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ فماذا تركوا لفرعون؟ وماذا تركوا للنمرود؟ وماذا تركوا لقارون؟ وماذا تركوا لهامان؟ هكذا يقولون لنبي الله موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، وانظروا إلى قولهم: ﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾، ولم يقولوا: أنت وربنا، وكأنه ليس برب لهم والعياذ بالله.

وهنا غضب موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال يعتذر إلى الله من فعل قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فقط، فماذا أصنع بهم يا رب؟ ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾، فسماهم فاسقين، والفاسق هو الخارج عن الشيء، وهم خارجون عن الطاعة، عن طاعة موسى عليه السلام، فجاء الجواب من الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هذه الأرض المقدسة محرمةٌ عليهم، فالذين يقولون هذا الكفر لن يدخلوها أبدًا، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

قال بعض أهل العلم: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فيجعلون التيه أربعين سنة، ثم يدخلون الأرض المقدسة، فتكون العقوبة محددة بأربعين سنة، أو تكون ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويقف، فتكون محرمة عليهم إلى الأبد: وزيادة على ذلك ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ لا تأسَ عليهم أبدًا؛ لأنهم يستحقون

ما سيصيبهم، وهؤلاء الذين قال الله فيهم سبحانه وتعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾، فهؤلاء خير أتباع الرسل في ذلك الزمان، ولكم أن تتصوروا كيف كان يُصنع بالرسل غير موسى -صلوات الله وسلامه عليه-.

موسى يضرب بعصاه الحجر:

قال الله تبارك وتعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، وقال الله جل وعلا: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾، إذًا سقاهم الماء العذب بمعجزة، ثمّ ظلل عليهم الغمام، وهذا في التيه، في الأربعين سنة التي كانوا فيها تائهين، يقول: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾ حتى صارت الصحراء ليست صحراء، بل مظللة بالغمام، لا تأتيهم الشمس ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَى﴾، وهم في الصحراء لا يحتاجون الصيد، والماء موجود، وكذلك المنّ والسلوى، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟! في الحضر قد لا تجد هذا الشيء فكيف في الصحراء؟! كل شيء موجود ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بعد أن أكلوا قالوا أين الشراب؟ فانبجستْ مِنَ الأرض اثنتا عشرة عينًا، وبعد أن طعموا قالوا: أين الظل؟ فظلل الله عليهم بالغمام، وهكذا ظلّوا في التيه طوال هذه الفترة، ثمّ بعد ذلك قال لهم يوشع بن نون عليه السلام: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾، وذلك أن هارون عليه السلام قد مات في التيه، وكذلك موسى عليه السلام مات في التيه، وخَلَفَ هارونُ وموسى نبيًا آخر، وهو يوشع بن نون عليه السلام، وقد استطاع أن يقنعهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقد ملّوا أربعين سنة، حتى يقال: إن الجيل كله مات، وهذا على القراءة التي قلنا فيها بالوقف على ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لن يدخلوها أبدَ الآبدين، ثمّ جاء جيل آخر، وهو الذي دخل بيت المقدس مع يوشع بن نون.

وإذا قلنا: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فبقية منهم والجيل الذي بعدهم، ولكن الأشهر أن جميع ذلك الجيل قد ماتوا، وخرج جيل جديد، لكن الجيل الجديد هذا جيل من بني إسرائيل، فمن شابه أباه فما ظلم، وهذا الجيل الجديد مع يوشع بن نون نبي الله، يقول لهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

استجابتهم ليوشع بن نون عليه السلام:

جاؤوا ليوشع عليه السلام، فقالوا: ندخل فقد مللنا من الصحراء، نريد الرجوع إلى بلادنا وأهلينا، قال: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ لابد أن تجاهدوا، فقاتلوا مع يوشع -عليه السلام-، ودخلوا الأرض المقدسة، فماذا قال الله جلّ وعلا لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ شُكرًا لله تبارك وتعالى ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا، واغفر لنا ما مضى، فماذا فعلوا؟ دخلوا الأرض المقدسة يزحفون على مقاعدهم عنادًا، كما قال النبي ﷺ: «فدخلوا يزحفون على إستاههم»[1]. الله عز وجل يقول: اسجدوا، وهم يزحفون على مقاعدهم عنادًا لأنبياء الله جلّ وعلا، والله يقول لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: يا رب حُطَّ عنا ذنوبنا، فقالوا: حنطة حبةٌ في شعرة[2]، ودخلوا الأرض، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

قصة قارون:

وكان في قوم موسى عليه السلام رجل ذكر الله قصته، يقال له: قارون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ ذكر أهل الكتاب أن قارون كان ابن خالة موسى أو ابن عمته، وكان قارون هذا قد آتاه الله من الأموال الشيء العظيم، وكانت عنده كنوز، مفاتيحها يصعب على الرجال الأقوياء حملُها، وكان موسى -عليه السلام- يعظه، ويذكره بالله دائمًا كلما رآه، ويذكره بالدِّين وترك الفجور والكفر والعصيان، وهو معاند إلى أن ملّ مِنْ دعوة موسى -عليه السلام- له، وقد ذكر الله عز وجل قصته، وقصة الكنوز التي أعطاها الله له، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ * وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ما آتاني الله شيئًا، إنما أخذته على علم عندي.

---

١ أخرجه البخاري (٣٤٣)، ومسلم (٣٠١٥).

٢ التخريج السابق.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ وهذا فضل العلم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ﴾ فكانت النتيجة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وهو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فانتهى الأمر.

قال الله جل وعلا: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، فلا أحد ينصره، ولا هو يستطيع نصر نفسه ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ لأنهم تمنَّوا مكانه وتمنوا أن يكونوا قد خرجوا في زينته كما يخرج، فلما رأوا ما صنع الله به خافوا وأذعنوا لله عز وجل.

موسى والخضر عليهما السلام:

روى البخاري ومسلم[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدّثنا أُبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن موسى عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، خطبة ذرفت منها العيون، وخشعت منها القلوب، فقام رجل من بني إسرائيل، فلحق بموسى، ثمّ سأله، فقال: أي الناس أعلم؟

فقال موسى: أنا.

يقول النبي محمد ﷺ: «فعتب الله عليه، إذ لم يَرُدَّ العلم إليه»، وهذا عتاب من الله تعالى لموسى، كأن الله يقول له: هلا قلت: الله أعلم، أو قلت: أنا والعلم عند الله، لماذا تجزم بقولك: أنا، والناس يتعلمون منك، وأنت نبي كريم؟ بل عَلِّم الناس أن ينسبوا العلم دائمًا إلى الله سبحانه وتعالى، فعتب الله عليه في هذه الكلمة.

---

١ أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

فقال الله له: «بلى لي عبد في مجمع البحرين هو أعلم منك، فما كان من نبي الله موسى إلّا أن قال: أي ربِّ ومن لي به»، وهذا يدلّ على أن موسى كان متواضعًا صلوات الله وسلامه عليه، وإنما قال: أنا ليس من باب الاستعلاء على الناس، وإنما أخبر بما يعلم، وإنما عتب الله عليه أنه لم يقل: الله أعلم.

فقال الله له: «تأخذ حوتًا فتجعله في مكتل وحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ»، والحوت هو السمكة، وكل ما يعيش في البحر يقال: له حوت، ومنه قول النبي ﷺ عن طالب العلم: «إنه يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر»[1] أي: الأسماك التي تعيش في البحر، وليس الحوت المعروف الذي هو أكبر الأسماك، والمِكتل هو: الزِمبيل، وجاء في بعض الأحاديث أنه حوت مُمَلَّح، وفيها أنه حوت ميت، وفيها أن الله قال: متى ما بَعَثْتُ الروح في هذا الحوت تجدُ صاحبك، إذًا أخذ حوتًا ميتًا مملحًا حتى لا يتعفن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، وذلك أنه أُخبر أنه سيجده عند مجمع البحرين ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، يعني: دهورًا؛ أي: أستمر حتى أجد هذا الإنسان.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾.

قال النبي ﷺ: «ثمّ انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة؛ وضعا رؤوسهما، فناما فاضطرب الحوت، فسقط في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء» أي: أمسك عنه جريان الماء، فوقف مثل الطاق «الخشبة»، يراه فتى موسى، «فانطلقا يمشيان بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾»، فتى موسى رأى الحوت، وهو يخرج وموسى ما رآه، فقد كان نائمًا، لكن فتى موسى عليه السلام نسي أن يقول له: إني فقدتُ الحوتَ في ذلك المكان، فاستمرا في المشي، وليس الغداء هو الحوت، وفتاه عندما ذهب إلى الزِمبيل تذكر أن الحوت قد ذهب من الأمس، وأنه نسي أن يقول لموسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال النبي ﷺ: «ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا حيث أمرهما الله»، فالله سبحانه وتعالى يُسَهِّل الطريق طالما أننا نريد الخير، فموسى يريد الخير، يريد طلب العلم.

---

١ أخرجه أبو داود في (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وهو في "صحيح الجامع" (٦٢٩٧).

قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ عندما نمنا عند الصخرة، ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ يعني خرج الحوت، ونسيتُ أن أخبرك، ثمّ اعتذر لنبي الله موسى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يعني: أمره عجيب، ولماذا؟ لأنه:

أولًا: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، يعني: سلك في الماء لكن لماذا؛ لأنه كان ميتًا، والميت لا يتحرك، ولكن نفخ الله فيه الروح.

ثانيًا: وقف في الماء، وكأنه طاق لم يتحرك، فقد أوقف الله الماء حتى رأيته بأم عيني، وهذا أيضًا عجب يقول: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قال النبي ﷺ: «فكان للحوت سربًا ولهما عجبًا».

قال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: رجعا يقصان آثارهما ليعرفا مِنْ أين مشيا حتى يصلا إلى المكان الذي ناما عنده، والصخرة التي فقدا عندها الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، ووصلا إلى المكان بعد مسيرة يوم وليلة، فإذا رجل مُسجى بثوب، فسلم موسى قال: «السلام عليكم»، فرد عليه، وقال: «وأنى بأرضك السلام» أي: ما سمعتُ السلام في هذه الأرض، فقال له نبي الله موسى: «أنا موسى قال: نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُك لتعلّمَني مما عُلِّمْتَ رُشْدًا. قال: يا موسى إني على علم علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه»، فكل واحد منهما تميز بعلم لا يعلمه الآخر، وهذا الرجل اسمه الخضر، فقال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فقدم له العذر، ثمّ قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، الأمور ستكون صعبة، وأنا أعذرك لو لم تصبر، فقال:﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

بداية مواقف موسى مع الخضر:

انطلقا -موسى والخضر- يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فقال أهل السفينة لموسى والخَضِر: تركبان معنا نوصلكما للضفة الأخرى؟ قالا: نعم، فعرفوا الخضر،

وهو رجل صالح عندهم، وقيل أنّه نبي مِنْ أنبياء الله، «فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَولٍ، فلما ركبا في السفينة؛ جاء عصفور فوقع على طرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر لموسى: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره مِن البحر»، فسبحانه لا إله إلّا هو العليم، ولذلك الله عز وجل لما يذكر نفسه في كتابه يقول: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، بل علم موسى وعلم الخضر عليهما السلام إنما هو من العليم الخبير كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

قال ﷺ: «فلم يفجأ موسى إلّا وأن خلع لوحًا بالقَدُوم -أي بالفأس-، فاستغرب موسى وقال له: ما هذا الذي تصنع؟ قوم حملونا بغير نَولٍ فعمدت إلى السفينة فخرقتها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾» والإمر: الشيء العظيم، والشيء السيء.

فقال له الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فسكت الخضر، قال النبي ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسيانًا، فلما خرجا من البحر مرًّا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه، فقلعه» أي: خلعه، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ والنُّكر: هو الشيء العظيم، وهو أعظم من الأول، فهنا عدم صبر موسى ليس نسيانًا، لم ينسَ؛ لأن قتل الغلام لا يمكن أن يسْكت عنه، فقال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فأنا أنذرتُك من البداية أنك لن تستطع معي صبرًا، فسكت موسى، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾، فاستحيى موسى أن يقول له: سامحني، فوضع حدًا، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

قال النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانًا والوسطى شرطًا وقع منه».

قال: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾» قرية لؤم كما قال ابن عباس: أهلها لئام ما يضيفون الضيف، ولذلك قالوا: «أشرُّ القُرى التي تبخل بالقِرى» يعني: بالضيافة، فالضيافة في الإسلام واجبة، يجب أن يكرم الضيف يومه وليلته، وثلاثة أيام مستحبة.

والظاهر أنها كذلك في شريعة موسى عليه السلام، ولذلك عابهم موسى عليه السلام.

قال: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ مائلًا يريد أن يسقط، فأشار إليه بيده، ومسح عليه، فاعتدل الجدار، فقال موسى -صلوات الله وسلامه عليه- للخضر عليه السلام: «قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا وعمدت إلى حائطهم فأصلحته ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾»، فقال له الخضر عليه السلام: هذا يكفي ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، فالأولى نسيانًا، والثانية وضعت شرطًا، والثالثة عمدًا.

قال الخضر لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، وقال النبي ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما».

قال الخضر: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾، والمسكين أحسن حالًا من الفقير:

فالفقير: هو الذي لا يملك شيئًا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾، فلا دار، ولا مال.

والمسكين: فهو الذي يملك شيئًا، ولا يكفيه، ولهذا هؤلاء يملكون سفينة، وسماهم الله مساكين، ومنه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾، فقدم الفقراء على المساكين؛ لأنهم أحوج من المساكين.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾، ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هنا يقول ابن عباس: بمعنى أمامهم، فكان هناك ظالم إذا مرّت عليه سفينة صادرها، فأراد الخضر عليه السلام أن يعيب هذه السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بحيث إذا رآها الشُرط، وهم جنود الملك لا تعجبهم، فيتركونها لهم، فلأن يتركوا لهم السفينة معيبة أفضل مِنْ أن يأخذوها كلها، والمقصود بكل سفينة: أي كل سفينة صالحة يغصبها منهم الملك.

وأما الغلام: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وهذا الغلام الظاهر من قول الله تبارك وتعالى أنه دون سن التكليف، ولذلك سماه: غلامًا، والغلام هو: الوليد الصغير، والبنت يقال لها: جارية، هذا الغلام أبواه كانا مؤمنين، فخشي الخضر عليه السلام أن يرهقهما؛ لأنه إذا كَبُر

كما علم الله عز وجل أنه سيكفر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فأمر الخضر عليه السلام أن يقتله صغيرًا رحمةً بوالديه؛ لأنه سيرهقهما طغيانًا وكفرًا، وقد يكفران بسببه، لحبهما له، فيطيعانه في كل شيء حتى لو طلب منهما أن يَكْفُرا لكَفَرا.

والجدار: قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، فإن القرية أهلها لئام، ولكن لابد أن فيها بعض الصالحين، وهذا الصالح الذي فيها مات منذ زمن بعيد، قالوا: هو الجد السابع، وقيل: العاشر، فالله عز وجل يحفظ الابن بجده العاشر، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

وماذا سيحدث إذا سقط الجدار؟ إذا سقط الجدار سيخرج الكنز، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ فإذا وجدوا كنزًا لغلامين صغيرين؛ فقد يأخذون المال كله، خاصة وهم أشرار، فالأفضل أن نصلح الجدار حتى يكبر الغلامان، وبعد ذلك يسقط الجدار بأمر الله سبحانه وتعالى ويخرج الكنز، وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحد أن يتعدى عليهما.

وهذه أمور لو تأملها الإنسان -حقيقة- فإنه يعذر موسى عليه السلام، فهي أمور لا يستطيع أحد أن يصبر عليها، إلّا أنها من أمور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولهذا الخضر عليه السلام منذ البداية قال: لن تسطيع ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

أدب الخضر عليه السلام مع الله عز وجل:

وهنا وقفة عند قول الله -تبارك وتعالى- عن الغلام:

قال الخضر: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

أردنا: أدخل نفسه في الخطاب، وأما عند الجدار فماذا قال؟ قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ فهنا قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وهناك قال: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ فما الفرق؟

قالوا: هذا من حسن الأدب مع الله عز وجل مع أن كلا الأمرين مِنْ الله عز وجل، فالله هو الذي أمره أن يقتل الغلام، والله هو الذي أمره أن يقيم الجدار، لكن الخضر عليه السلام

عالم بالله ونبي كريم لم ينسب قتل الغلام لله عز وجل؛ لأنه في الظاهر عمل سيء، فما أراد أن ينسب السيء إلى الله تبارك وتعالى بينما بناء الجدار ظاهره عمل حسن، ولذلك موسى عليه السلام أنكر عليه أنه فعله بدون مقابل، فالشيء الذي ظاهره خير نسبه إلى الله وحده سبحانه وتعالى والشيء الذي ظاهره سيء نسبه إلى نفسه أدبًا مع الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك ما ورد عن الجن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن المريد واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فالأمر كله بيد الله عز وجل، ولكن من أدب الجن مع الله سبحانه وتعالى أنهم نسبوا الرشد لله عز وجل، ولم ينسبوا الشرَّ إليه سبحانه، ونقول في دعائنا: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك»[1]، مع أنه في يديه، لكنه ليس إليه.. لماذا؟ أدبًا، نتأدب مع الله، فلا ننسب الشرَّ إليه فعلًا، وإن كان يُنسب إليه خلقًا، فمن الذي خلق إبليس الذي هو رأس الشر؟ خلقه الله سبحانه وتعالى، والله لا يفعل الشر وإن كان خلقه جل وعلا.

موسى عليه السلام وملك الموت:

لم يذكر الله عز وجل لنا كم مكث موسى عليه السلام في بني إسرائيل، ولكن ذكر لنا النبي عليه السلام أن الله عز وجل قد أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت، ففقأها. قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني. قال: فرد الله إليه عينه. وقال: ارجع إلى عبدي، فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعره؛ فإنك تعيش بها سنة. قال: ثمّ مَه؟ قال: ثمّ تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر»[2].

فموسى عليه السلام بعد هذا العناء، وبعد هذه الحياة الطويلة، وكيف أنه كان مستهدفًا في زمن فرعون وبعده، ثم الإيذاء الذي وقع له عليه السلام، ثمّ يدخل عليه أحد في بيته ويقول له: أجب ربك، سأقتلك، وأقبض روحك، فقام موسى عليه السلام فلطمه، ففقأ عينه، فقأ

١ أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.
٢ أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

عين مَنْ؟ إنه ضرب الآدمي الذي أمامه، فقد أتاه ملك الموت على صورة آدمي، فلم يعرفه،

ثمّ إن ملك الموت تأدَّب مع موسى عليه السلام فما قبض روحه، فهو كليم الله عز وجل، وله منزلته، فرجع إلى ربه، فقال: رب إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، فرد الله عينه، فالضربة لم تأتِ على الملك، وإنما على صورة الآدمي؛ لأن الملك خُلِقَ من نور، لكنه يتشكل بصورة الآدمي، فردَّ الله له عينه، وقال له: ارجع إلى موسى، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريدها؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارى تحت يدك من شعره، فإنك تعيش بها سنة، لك بكل شعرة سنة، فرجع الملك إلى موسى عليه السلام وعينه قد رجعت صحيحة، قال: يقول لك ربك: ضع يدك على ظهر ثور، ولك بكل شعرة تواريها يدك سنة، قال موسى: ثمّ مَه؟ قال: ثمّ تموت، قال: «فالآن من قريب»، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يموت نبي إلّا ويخيره الله بين الحياة والموت»[1]، واختار موسى صلوات الله وسلامه عليه الموت، ثمّ قال: «رب أمتني من الأرض المقدسة برمية حجر» يعني: أريد أن أموت قريبًا من المكان المبارك، من الأرض المقدسة، وهذا يدلّ على أن الإنسان كلما دُفن في مكان مبارك كان أفضل. فقال له سبحانه: لك هذا، فدفن موسى عليه السلام في ذلك المكان وهكذا تُوفي نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه.

---

١ أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

قصة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه الصلاة السلام هو أبو الأنبياء الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، خليل الرحمٰن.

ذُكر نبي الله إبراهيم في كتاب الله تبارك وتعالى تسعًا وستين مرة، واختلف أهل العلم في اسم أبيه، فالذي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن اسم أبيه آزر، كما قال -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، وكذلك جاء في السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: فاليوم لا أعصيك، عندها يقول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، وأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله له: إني حرمت الجنة على الكافرين»[١].

نشأة إبراهيم عليه السلام:

نشأ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في العراق، في بيئة وثنية، تُقدس الأصنام، وتعبدها من دون الله تبارك وتعالى، بل قيل: إنهم كانوا صابئةً يعبدون الشمس، والقمر، والكواكب، وأيًا كان؛ فعبادتهم للأصنام جاء النص عليها في كتاب الله تبارك وتعالى.

ذُكر أن أبا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان نجارًا، وكان ينجر الأصنام، وكان أحيانًا يعطيها لولده إبراهيم، يأمره أن يبيعها، فيخرج بها -وهو صغير- إلى السوق، فينادي بالناس: «من يشتري ما يضر ولا ينفع»، وكان أحيانًا يذهب بها إلى الماء، فيغطس رأسها في الماء ويقول: «اشربي» متهكمًا صلوات الله وسلامه عليه.

ومن نظر في الكتاب والسنة يتبين له أن الله تبارك وتعالى لم يذكر لنا ولا النبي ﷺ شيئًا عن نشأة إبراهيم، لا عن بلده، ولا عن زمانه، ولا عن نشأته من الصغر، كيف نشأ؟ كيف

١ أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رُبي؟ لم يُذكر شيء من هذا، وإنما أول ما ذكر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، هو أنه جاء وخاطب قومه في عبادتهم للأصنام.

المسلمون أحق الناس بإبراهيم عليه السلام:

انتسب إلى إبراهيم أربعُ طوائف: المسلمون، واليهود، والنصارى، والمشركون، كلُّ هؤلاء انتسبوا لإبراهيم، فهو إذًا عامل مشترك بين الجميع، فالكل يعظم هذا الإنسان صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك نبه الله تبارك وتعالى كثيرًا في كتابه العزيز على حال إبراهيم، ومن الذي يستحق أن ينتسب إليه صلوات الله وسلامه عليه.

أما اليهود والنصارى فقد قال الله تبارك وتعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ما كان يهوديًا، ولا نصرانيًا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فكان صلوات الله وسلامه عليه متحنفًا عن الشرك أي: منحرفًا عن الشرك إلى الإيمان.

حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام:

والآيات التي تبين حقيقة دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جدًا في كتاب الله تبارك وتعالى، فمنها قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾.

فضل إبراهيم عليه السلام:

نبه الله تبارك وتعالى وكذا نبيه ﷺ كثيرًا على فضائل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمما جاء في كتاب الله:

أولًا: الاصطفاء وتمام النعمة، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأتم نعمته عليه كما يقول ليوسف عليه السلام: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

ثانيًا: وصفه الله بأنه نبي صديق، كما قال الله -جل وعلا-:﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

ثالثًا: وصفه الله بالصلاح، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

رابعًا: وصفه بأنه أواه حليم منيب، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

خامسًا: سليم القلب، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

سادسًا: آتاه الله رشده وهو صغير، فضلًا من الله ومنّة، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾.

سابعًا: رفع الله درجته، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾.

ثامنًا: اتخذه الله خليلًا: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

تاسعًا: أنه وفّى ما عليه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

وأما ما جاء عن النبي ﷺ:

وجاء عن النبي ﷺ أن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه[1].

وفي حديث المعراج: لما عُرج بالنبي ﷺ لقي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة مسندًا ظهره إلى البيت المعمور[2].

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس.

٢ أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، واللفظ له.

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

بدأ نبي الله إبراهيم دعوته بأبيه، وتلطف معه أعظم التلطف، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فبدأ بأقرب الناس إليه، وهو أبوه، ولم يذكر الله تبارك وتعالى لنا شيئًا عن أمه، وإنما ذكر لنا أباه، فتلطّف في الدعوة مع أبيه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، ولم يقلْ له: (يا أبت إنك جاهل)، وإنما جاء بعبارة لطيفة، فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، مع أن أباه كان يعبد الأصنام وينحتها، وهذه طاعة للشيطان، وهذا يُسمى بشرك الطاعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ألا تطيعوا الشيطان.

ثم قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، نعم، كلُّ كافر فهو ولي للشيطان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوفكم أولياءه، وقال: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾، وكلمة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه هنا تضمنت -كما نرى- النصحَ، والرفقَ، واللينَ، ومحبةَ الخير، وإقامةَ الحجة على أبيه؛ لينقذه من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن الضلال إلى الهدى، هكذا كانت دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكيف كان رد أبيه عليه؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، إبراهيم يقول: (يا أبت.. يا أبت.. يا أبت)، وأبوه يقول: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، ولم يقل له: (يا بُني)، قسوة يجدها الكافر في قلبه، حتى كلمة (بُنَي) لم يقلها لإبراهيم، وإنما ناداه باسمه دلالةً على القسوة التي في قلبه عليه.

ولذلك وصف الله تبارك وتعالى الكفار بأن قلوبهم قاسية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، ثم زادت هذه القسوة فهدد بالرجم ثم زادت، فقال: ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾، فطلب الهجر

من إبراهيم، ثم أيُّ هجر قال: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: اهجرني هجرًا طويلًا، لا أريد أن أراك، لا أريد أن أسمعك، طلبَ من إبراهيم أن يتركه وآلهته، عندها قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾، وهذا مصداق أمر الله تبارك وتعالى للمؤمنين في تعاملهم مع الجهال، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَاهِلِينَ﴾ فطبق نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هذا الأمر، فقال لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾.

ثم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وهذا وعد من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقد وفَّى صلوات الله وسلامه عليه بهذا الوعد، فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ﴾، فوفَّى إبراهيم، ولكن لما تبيَّن لنبي الله إبراهيم أن أباه عدوٌّ لله تبارك وتعالى تبرَّأ منه، قال الله -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، ولما استغفر إبراهيم لأبيه -وهو على شركه وضلاله وكفره- اقتدى المسلمون بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فاستغفروا لموتاهم من المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان يصلي على بعض المنافقين إذا ماتوا صلوات الله وسلامه عليه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالاقتداء بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُ﴾، ثم استثنى الله تبارك تعالى استغفار إبراهيم لأبيه، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هذه مستثناة، في هذه لا تقتدوا بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمنعهم الله -جل وعلا- من الاستغفار للمشركين، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ إذًا لا تقتدوا به في هذه، وهي استغفاره للمشركين؛ لأنه إنما كان عن موعدةٍ ثم ترك ذلك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه ومناظرته لهم:

المرحلة الثانية من دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة قومه إلى التوحيد، فقال -جل وعلا- في ذكر المناظرة التي جرَتْ لإبراهيم مع قومه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

إن موقف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من هذه الكواكب موقف مناظرة لا موقف نَظَر، فلم يشكَّ إبراهيم أبدًا بالله -جل وعلا-.

وكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال لقومه: تعالوا فلننظر هذا النجم هل يستحق أن يكون ربًا؟ هذا القمر هل يستحق أن يكون ربًا؟ هذه الشمس هل تستحق أن تكون ربًا؟ أفل النجم، أفل القمر، أفلت الشمس، أفل أي: غاب، ولا ينبغي لرب أن يغيب، والمناظر قد يقول شيئًا وهو لا يعتقده من باب الإلزام، ولذلك سيأتينا قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لقومه لما جاءوا -وقد كسّر أصنامهم- فقالوا له: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، فهذا على سبيل المناظرة لا على سبيل الاعتقاد، فهو أراد أن يلزمهم وأن يقيم عليهم الحجة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه جلس مع قومه، فلما رأى النجم قال لهم: (هذا ربي)؟ بإسقاط الهمزة، (أهذا ربي؟) أهذا تزعمون أنه ربٌّ؟ فلما غاب طلع القمر، فقال: أهذا ربي؟ فلما غاب طلعت الشمس قال: أهذا ربي؟ وهو لا يقولها على سبيل التقرير، وإنما يقولها على سبيل الاستفهام، على وجه التوبيخ والتحقير لرأيهم.

والدليل على أن إبراهيم لم يشك أمور منها:

أولًا: الاعتقاد بأن النجم ربٌ، أو أن القمر ربٌ، أو أن الشمس ربٌ كفر، والأنبياء معصومون مِنْ الكفر.

ثانيًا: إبراهيم أنكر الشرك في البداية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، ثم قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، إذًا هو في البداية أنكر عليهم أن يعبدوا غير الله تبارك وتعالى، فكيف يشك في هذه المسألة؟

ثالثًا: هذه الآية إنما كانت بعد أن أراه الله تبارك وتعالى ملكوت السماوات والأرض؛ أي: عظمة خلق الله -جل وعلا-، ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾، فالذي أراه الله ملكوت السماوات والأرض لا يمكن أبدًا أن يشك بأن النجم رب، أو أن القمر رب، أو أن الشمس رب.

رابعًا: قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ دَلَّ على أنه أراد أن يقيم عليهم الحجة، لا أنه اعتقد ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

خامسًا: نفى الله الشرك عن إبراهيم في كثير من الآيات، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا يُسمى بنفي الكون؛ أي: لم يكن، ولن يكون أبدًا من المشركين.

هل وقع الكذب من إبراهيم عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، وهنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وذلك أن قومه أرادوا أن يخرجوا إلى عيدهم -كما ذكر أهل السير والتاريخ- وطلبوا من إبراهيم أن يخرج معهم، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، نظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم.

قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وفي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وفي قوله: عن زوجته عند الملك الظالم: إنها أختي»[1].

هذه ثلاث كذبات تنسب إلى نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بل قد جاء في الحديث الصحيح -حديث الشفاعة- أن الناس يذهبون إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فيقولون له: أنت خليل الله، اشفع لنا عند ربك، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «إني قد كنت كذبت ثلاث كذبات»[2]، فهل يجوز أن يُنْسَب لإبراهيم الكذب أو لا؟

النبي ﷺ الذي هو من أعظم الناس تعظيمًا لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»[3]، فنزهه، وكثيرًا ما كان يفتخر بنسبته إلى إبراهيم، بل إن الله كثيرًا ما كان يقول له: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وإبراهيم نسب هذا إلى نفسه، وقال: «كذبت ثلاث كذبات» وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «كذب في ذات الله»، فكيف يُحمل هذا الكذب؟

أجاب أهل العلم بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذه الكذبات الثلاث إنما كانت قبل النبوة، ونهيه لهم عن عبادة الأصنام، ولذا يأتينا عندما يكسر إبراهيم الأصنام يقول قومه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

إذًا هو غير معروف، هو فتى؛ أي: صغير، يقال له: إبراهيم، ولو كان قد بعث إليهم ما كانوا يقولون: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وكذا الأمر بالنسبة لقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ لأنها في قصة واحدة، وكذا في ذهابه إلى ذلك الملك، قالوا كذلك يكون قبل بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

والجواب الثاني: إنما قال هذا من باب التورية، يقول: إني سقيم مما أراه منكم من ضلال، سقيم مما أراه منكم من باطل، ومن كفر بالله، وعبادة للأصنام التي لا تضر ولا تنفع، بل تضر ولا تنفع فيكون هذا من باب التورية لا من باب الكذب.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢ أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٣ أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذا قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ إنما قاله لهم من باب الاستهزاء والتحقير لهم، ولذلك قال بعدها: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ اسألوهم، مَنْ كسرها؟ اسألوا هذا الكبير هل هو الذي كسرها أو لا؟

وأما قوله لزوجته إنها أخته، فإن هذا على سبيل دفع أعظم المفسدتين، وذلك أنهم ذكروا أن ذلك الملك إذا عرف أن لها زوجًا قتله، وأخذها لنفسه، فلذلك دفع إبراهيم أعظم المفسدتين بأخفهما، فكذب وقال: هي أختي؛ لينجو من القتل، وتنجو هي من الاغتصاب، وهذا عين العقل، وهذا هو الواجب في الشرع أن الإنسان إذا اعترضته مفسدتان -ولابد من الوقوع في إحداهما- فإنه يقدم أخفَّ المفسدتين.

فالقصد أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إنما قال هذا من باب دفع أعظم المفسدتين.

هدم الأصنام من سنن الأنبياء والمرسلين:

خرج قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم، وإبراهيم فيه حرقة على ما يفعله قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ أي: مسرعًا متخفيًا، فدخل على الآلهة، فوجدها في بهو عظيم، ومكان متسع، وقد وُضع لها الطعام، فدخل عليها، ووجد الطعام كما هو لم يتغير، فقال لهم: ألا تأكلون؟

وهذا يفعله بعض الجهال الآن يذهبون إلى المقابر ويضعون الطعام والشراب عند قبر الميت ليشاركهم في الطعام، هؤلاء يقال لهم كما قال إبراهيم لهذه الأصنام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فجاء إلى هذه الأصنام، فقال: ألا تأكلون؟ كلوا، وُضع الطعام لأجلكم، ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ قولوا: لا نريد، قولوا: لا نأكل، قولوا: لا نجوع، قولوا: نحن آلهة، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ عبّروا عن رأيكم مالكم لا تنطقون؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾؛ أي: كسّرها صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلوا إليه يزفون فواجههم، وقال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ هذه يسمونها حيدة؛ أي: حادوا عن الجواب، هو ما قال لهم: هل كان يعبدها آباؤكم أو لا؟ إنما قال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ المفروض أن يكون الجواب بنعم أو لا، لكن قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا إقرار واعتراف منهم أنها لا تنفع، ولا تضر، ولا تسمع، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ كأنهم في كلامهم محبون للحق وأنهم يتبعونه، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، إذًا هدَّدهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيكيد هذه الأصنام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: حطمهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

وهذا فيه إشارة إلى غيرة الكبير المتعال سبحانه وتعالى الذي لا يرضى أن يَعْبُد أحد غيره سبحانه وتعالى، فإبراهيم كسر جميع الأصنام إلا كبيرهم لعلهم إليه يرجعون، كأن يقول لهم: كما أن هذا الكبير غارَ مِنْ هذه الأصنام أن تعبد، فالله يغار أن يعبد غيره سبحانه وتعالى.

وهنا قال بعض أهل العلم: إنما قال هذا إبراهيم في نفسه يعني ما قالها لهم، قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ يُحَدِّث نفسه، فإذًا إما أن يكون قالها في نفسه صلوات الله وسلامه عليه، وإما أنه أسمعهم، ولذلك سيأتينا قول الله تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: هدد بكسر هذه الأصنام.

فلما رجعوا ووجدوا الآلهة مكسرة محطمة جذاذًا كما أراد إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يذكرهم بالعيب والنقص، ينتقص هذه الأصنام، هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم

أو يضرون، يتنقص هذه الأصنام ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، وهذا الذي يريده إبراهيم، يريد أن يتكلم على أعين الناس، ولذلك لما جاء موسى لفرعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، يوم العيد، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ حتى يرى الناس.

فلما جمعوا الناس قالوا له أمام الناس: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وأشار إلى الصنم الكبير ﴿فَٱسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، وإن كانت لكم عقول تعقلون ما تقولون، فاسألوهم إن كانوا ينطقون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾، كلامه صحيح، ﴿أَنْتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾، لماذا تركتم الآلهة بدون حراسة، وتركتم إبراهيم يكسرها، ﴿أَنْتُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ تستحقون ما أصابكم، وهذا ما أراده إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بأنهم كما اعترفوا أمامه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أرادهم أن يعترفوا أمام الناس مرة ثانية أن هذه الآلهة لا تنطق، فقامت عليهم الحجة.

وحينما أقرّوا بهذه الهزيمة، وأقام إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه عليهم الحجة؛ لجؤوا إلى القوة، وذلك أن نبي الله إبراهيم لما قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَٱسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، ألزمهم أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم، لا ينطقون، ولا يسمعون، ولا يدافعون عن أنفسهم.

الأمر الثاني: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم فعله كبيرهم هذا، وفي كلا الحالتين يخرج منها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهم أُلزموا واعترفوا بالأولى، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، ولكنهم لما أعيتهم الحجة؛ استخدموا القوة والبطش، قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، وهذه تسمى بشريعة الغاب، شريعة الظفر والناب بالقوة، لا بالحجة، والعقل، والمنطق، ولا إقناع.

إلقاء إبراهيم في النار:

أشعلوا نارًا عظيمة، أرادوا أن يحرقوا إبراهيم عليه السلام فيها، فجمعوا حطبًا عظيمًا لحرق إبراهيم، حتى قالوا: إنهم أشعلوا نارًا عظيمة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا منها

ليلقوا إبراهيم فيها من شدة حرّها، فوضعوه على آلة المنجنيق وورموه رميًا، ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ﴾، ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ألقوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فقال: «حسبي الله ونعم الوكيل» الله أكبر، المؤمن الصادق التقي النقي المخلص الذي امتلأ قلبه يقينًا وإيمانًا بالله تبارك وتعالى، يقول هذه الكلمة في هذا الوقت الحرج «حسبي الله ونعم الوكيل»، يرى الموت بعينيه، سيلقى في هذه النار العظيمة، «حسبي الله ونعم الوكيل».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم لما أُلْقي في النار، وقالها محمد وأصحابه لما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

بعد أن لجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه سبحانه وتعالى جاء الفتح، وجاء النصر من القوي العزيز الذي ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، فكانت كما قال الله -جل وعلا-. فسبحان الله، لا إله إلا هو ملاذ المؤمنين، ومنجي الصالحين، النار التي أعطاها الله خاصية الإحراق سلبها منها، عندما أُلقي فيها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم»[2]، وهو حيوان الأصل فيه الإفساد.

هجرة إبراهيم عليه السلام:

بعد أن أيقن نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن قومه مصرون على ما هُمْ عليه من العناد والكفر بالله تبارك وتعالى، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، حتى بعد أن أظهر الله تبارك وتعالى أمره، وغلبت حجة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه باطلَهم، وبعد أن ظهر ضعفُ آلهتهم، وسَفَهُ عقولهم، بعد هذا كله يئس منهم نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وفكَّر في الهجرة من هذه البلاد إلى بلد آخر يعبد الله تبارك وتعالى فيه.

---

١ أخرجه البخاري (٤٥٦٣).
٢ أخرجه الإمام أحمد "المسند" من حديث عائشة.

واختلف أهل العلم في البلد التي هاجر إليها نبي الله إبراهيم عليه السلام على قولين:

القول الأول: إنه هاجر إلى مكة المكرمة شرفها الله.

القول الثاني: إنه هاجر إلى الشام، وهو لا شك دخل الشام، ودخل مكة المكرمة.

والهجرة ذُكرت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ فاعتزلهم في العبادة، واعتزلهم كذلك في المكان.

الموضع الثاني: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾.

الموضع الثالث: في قول الله تبارك: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، وفي قوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

إبراهيم عليه السلام مع النمرود:

قال الله -جل وعلا- ذاكرًا هذه القصة القصيرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

المشهور عند أهل العلم أن هذا الرجل هو مَلِك بابل، ويقال له: النمرود أو النمروذ -بالذال المعجمة- بن كنعان، وكان من ملوك الدنيا، وذُكِرَ أن الذين ملكوا الدنيا أربعة، ملكان كافران، وملكان مؤمنان، أما المؤمنان: فسليمان صلوات الله وسلامه عليه، وذو القرنين، وأما الكافران: فهذا النمرود، والثاني بختنصّر.

وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قد جاء إلى هذا الملك يطلب الميرة؛ أي: الطعام، فناظر إبراهيم في ربه تبارك وتعالى، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لأن ذلك الرجل كان يدعي أنه رب مع الله، إله ثاني، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، وقد ذكر أهل العلم أن مقولته: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد أنه يأتي برجلين فيحكم عليهما بالموت، ثم قبل التنفيذ يسامح أحدهما، وينفذ في الآخر، فيكون الذي سامحه كأنه مات فأحياه، ويكون الذي حكم عليه بالموت قد أماته، وهذا لا شك

أنه تلبيسٌ وتدليسٌ وكذبٌ، الله يحيي من العدم سبحانه وتعالى، وهذا يلبس على الناس، ولمّا قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ تركه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إلى دليل أوضح من هذا الدليل، وذلك ليفضحه على الملأ، وليكشف عجزه عن الأول والثاني، كأنه يقول له: إذا كنت تدعي أنك تحيي وتميت، فأنت الذي تُنْشِئ الخلق، وتُوجد من العدم، فأنا آتيك بأبسط منها: ائتِ بالشمس من المغرب، فلم يقل النمرود: أنا آتي بالشمس من المشرق، فليأت بها ربك من المغرب؛ وذلك أنه لو قال ذلك لظهر كذبه؛ لأنه لا يمكنه ذلك؛ لأن إبراهيم سيقول له بعدها: فإن كان الأمر كذلك؛ فأتِ بها من المغرب إذا كنت أنت الذي تأتي بها من المشرق، وأيضًا لم يطلب من إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب؛ لأنه يعلم أنها سنن كونية، وأن هذه السنن لا تتغير لأجل مناظرة أمثال هذا الرجل.

قصة إبراهيم مع الملك الظالم:

قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، قال: من هذه التي معك؟ فقال: هي أختي.

ثم أتى نبي الله إبراهيم لسارة، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك؛ فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يقصد الأرض التي هو فيها، وإلا فنبي الله لوط مؤمن، ولكن ليس معهم في هذه الأرض، «فأرسل إليها وقام إبراهيم يصلي» لا يملك شيئًا، لا يملك أن يقاتل هذا الجبار، ولا يملك أن يمنعه، قام يصلي، لجأ إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا المؤمن، إذا ضاقت به الأمور؛ فإنه يلجأ إلى مفرج الشدائد سبحانه.

«ودخلت سارة على ذلك الملك فذهب يتناولها بيده» يعني: أراد أن يمسكها بيده فأُخِذَ، صارت يده كأنها خشبة لا يستطيع أن يحركها، فقال: «ادعِ الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق»، ثم تناولها الثانية، «فأُخِذَ أشد من الأولى، فقال: ادعِ الله لي ولا أضرك، فدعت الله، فأُطلق، ثم نادى بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، وإنما جئتموني بشيطان،

أخدموها هاجر» أي: أعطاها خادمة «وأخرجوها عني»، فأتت سارة معها الخادمة إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو ما زال يصلي، فأومأ بيده، ماذا حدث؟ أشار وهو يصلي، فقالت: «رد الله كيد الكافر» ولم تقل رددته أنا، وإنما «رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر».

لو قال قائل: لِمَ قال إبراهيم إنها أختي؟ ولِمَ لَمْ يقُل زوجتي؟ خاصة وأن الملك إذا أراد أن يغتصب هذه المرأة لا يختلف الأمر عنده أختًا كانت أو زوجة، فإنه سيغتصبها، فهل إذا كانت أختًا سيمتنع، وإذا كانت زوجة سيغتصبها؟

ذكر أهل العلم أن الفرق كما وجدوه أيضًا في كتب أهل الكتاب هو أن ذلك الرجل كان إذا عرف أن لامرأة أعجبته زوجًا قتله واغتصبها، فأخف الضررين أن يغتصبها ولا يقتل إبراهيم عليه السلام. وقيل: يقتله غيْرة؛ لأنه يريدها له. وقيل: كذلك أنه كان من دينه، أنه لا يقرب امرأة حتى يقتل زوجها، فقول إبراهيم إذًا صلوات الله وسلامه عليه: «إنها أختي» حتى يسلم من القتل، لا أن تنجو هي من الاغتصاب أو عدمه؛ لأن هذا لم يكن سيؤثر في ذلك الأمر.

وهذا الكذب جائز؛ لأنه إذا تعارضت مفسدتان -مفسدة الكذب ومفسدة القتل- فلا شك أن مفسدة الكذب أهون من مفسدة القتل.

غيرة النساء:

كانت سارة عاقرًا، فلما أهداها الملك هاجر أهدتها لإبراهيم، ليتسررّها؛ أي: ليجامعها، فقربها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فأنجبت له إسماعيل، فوقعت الغيرة في قلب سارة، عند ذلك خرج إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهاجر وابنها إسماعيل مهاجرًا أيضًا، أخذهما إلى مكة، وهذا يُقَرِّب أن إبراهيم إنما هاجر في بداية الأمر إلى الشام، ثم بعد ذلك هاجر بأَمَتِهِ هاجر وبولده إسماعيل إلى مكة.

ترك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمته هاجر وولده إسماعيل في مكة، ويذكر لنا الإمام البخاري هذه القصة في صحيحه[١].

---

١ صحيح البخاري (٣٣٦٤)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قِبَلِ أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها عن سارة، لشدة غيرة سارة منها، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت؛ أي: الحرام، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، ولم تكن زمزم موجودة في ذلك المكان، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء فقط، ثم قفّى منطلقًا، تركهما وانصرف، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا تردد عليه، وهو منطلق عنها وجعل لا يلتفت إليها، عندها أدركت شيئًا معينًا، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، يأمره أن يترك ولده، أول ولد له مع أمه في هذا المكان القفر مع جراب من تمر وسقاء من ماء فيستجيب، ما صار خليلًا للرحمٰن إلا بهذا، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، الله أمرني بهذا، قالت: إذًا لا يضيعنا.

الله أكبر، يقين، صدق عند هذه المرأة عجيب، وتوكل على الله لا تكاد تجده عند الرجال، ومن كان الله معه؛ فلا شك أن الله كافيه سبحانه وتعالى، ومن يتوكل على الله فهو حسبه -جل وعلا-، إن التوكل على الله فيه راحة للنفس وطمأنينة قلما يجدها الناس من غير المتوكلين على الله -جل وعلا-.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، ثم انصرف صلوات الله وسلامه عليه.

وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ الماء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى من العطش، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه بهذا الوضع، فوجدت الصفا أقرب جبل من الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، وكان واديًا، فكانت تجري فيه حتى تصعد الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات، ترجع بين الصفا والمروة، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذاك سعي الناس

بينهما»، قال: فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صهٍ، تريد نفسها مع أنه لا يوجد من تسكته، وإنما تُسكت نفسها، تحدث نفسها.

ثم قالت قد أَسْمَعْتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم -عند الصبي الصغير-، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه -أي: تمنع الماء من أن ينتشر، تعمل له مثل الحوض-، وتقول بيدها هكذا، -يعني: تَزُمُّه ولذلك سمي زمزم-، ثم قال: وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، -كلما غرفت بالسقاء كلما فار الماء-، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يُبنى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس: وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، وإن هذا الطائر ليدور على ماء، فأرسلوا جريًّا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا وأخبروهم بأن في هذا المكان ماء، فأقبلوا إلى الماء، قال ابن عباس: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نجلس عندك، -وهذه من أخلاق العرب، استأذنوها وهي امرأة ضعيفة معها ولد رضيع، وهم جماعة كثيرة، ومع هذا يستأذنونها-.

قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء -هي إلى الآن تخشى قلة الماء، وإنه بالكاد يكفيها وولدها- قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» يعني: جاءها الذي يؤنسها، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى.

قال ابن عباس: فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، واستقروا في هذا المكان حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم.

إبراهيم عليه السلام يؤمر بذبح ابنه:

وفي هذه الأثناء حين كبر إسماعيل قليلًا، وتمكن حبه من قلب إبراهيم والده صلوات الله وسلامه عليه؛ أراد الله -جل وعلا- أن يمتحن إبراهيم، وذلك لتقديم محبة ربه وخُلّته التي لا تقبل المشاركة ولا المزاحمة؛ لأن الخلة أعلى أنواع المحبة، ولذلك قال النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله»[1].

إن الله تبارك وتعالى أمره أن يذبحه كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، وهذه السن -تقريبًا- هي السن التي يكون فيها الولد أحب شيء إلى والده؛ لأنه بدأ يمشي معه ويذهب ويجيء ويساعده، كما قال أهل العلم: ذهبت مشقته وجاءت منفعته.

جاء إبراهيم إلى ولده وقال: ﴿يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، هكذا جاءني الأمر من الله -جل وعلا-؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، والشيطان لا تسلط له على الأنبياء؛ لأن الحلم من الشيطان، والرؤيا من الله، والشيطان قد عصم اللهُ الأنبياءَ منه، فكل ما يراه الأنبياء في منامهم فهو وحيٌ من الله تبارك.

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ خضعا لأمر الله -جل وعلا-، وانقادا له، ووطنا نفسيهما على القبول، مع أنه أمر مزعج لا تكاد النفوس أن تصبر عليه أو أن تصبر على أقل منه، ولكن:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تَعبتْ في مرادها الأجسام

وذلك أن نفس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ونفس إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه كانتا من النفوس الكبار عند الله -جل وعلا-، ولذلك قال الله -جل وعلا-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، ويقول الله -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ عند ذلك جاء الفرج من الله تبارك وتعالى ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾ صدقتها بقلبك، وصدقتها بعملك وهذا وقع لإبراهيم ولولده الذي أراد أن يذبحه، حصل لهما الأجر والثواب والشرف والقرب من الله تبارك وتعالى لاستسلامهما لأمر الله -جل وعلا-، عندها قال الله

---

[1] أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهو أيضا في الصحيح عن جندب وابن عباس وابن مسعود.

تبارك وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ لأن الذبح الآن لا فائدة منه، ولا محصلة من ورائه؛ لأن مرادَ الله قد تحقق، وودَّ إبراهيم قد صفا لله -جل وعلا-. فصار بعد ذلك سفك الدم وإزهاق الروح لا فائدة منه ولا معنى له، وذلك أن الله تبارك وتعالى لا يريد تعذيب عباده، ولكنه يريد أن يبتليهم سبحانه وتعالى، وقد ابتلى إبراهيم وحقق الابتلاء مراد الله -جل وعلا- وجاء نفعه، وظهر أثره وتحققت النتيجة، إذًا لا داعي للذبح بعد ذلك ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وصارت بعد ذلك سنة للمسلمين الذين يتبعون ملة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن نذبح في الأضحى في كل سنة كما فدى الله ولد إبراهيم من الذبح.

حديث ضيف إبراهيم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ضيوف غرباء دخلوا على إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، رآهم واستغربهم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ولكن لم يمنعه هذا من أن يذهب إلى أهله ويأتيهم بعجل سمين، وقربه إليهم ليأكلوا، فلم يأكلوا، فتعجب منهم صلوات الله وسلامه عليه، فأخبروه بأنهم ملائكة الرحمٰن سبحانه وتعالى، وذلك أن الملائكة خُلقوا من نور، وجعل الله لهم القدرة على التشكل، تتشكل الملائكة على صورة الآدميين، كما تشكل جبريل على صورة رجل جاء يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان[1].

وهنا تشكلت الملائكة لإبراهيم، على صورة بشر، وتشكلت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام على صورة بشر، وتشكل ملك الموت لموسى على صورة بشر[2]، وهكذا تتشكل الملائكة كيف شاءت.

---

١ أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأيضا أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢ أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن القيم رحمه الله: في هذه الآية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ مدح من الله -جل وعلا- لإبراهيم من أوجه:

أولًا: وصف ضيوفه بأكرم وصف، فقال الله -جل وعلا-: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إذًا ضيوف إبراهيم كانوا مكرمين، إما من قول الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: عن الملائكة، أو وصفهم بمكرمين؛ أي: بما قام به إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من الإكرام لهم.

ثانيًا: قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ولم يذكر لهم استئذانًا، وإنما قال: ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ قال ابن القيم: مما يدل على أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مضيافًا، وكان بيته مفتوحًا للضيوف.

ثالثًا: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ والروغان هو: الذهاب بسرعة وخُفية حتى لا يزعج ضيوفه صلوات الله وسلامه عليه.

رابعًا: ذهب إلى أهله، فجاء بالضيافة مباشرة، ولم يقل: ثم جاء بعجل سمين، مما يدل على أن الضيافة كانت عنده جاهزة صلوات الله وسلامه عليه، وذلك لكثرة دخول الضيوف عليه.

خامسًا: جاءهم بعجل سمين، وهذا من كرم الضيافة.

سادسًا: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، لم يقل إيتونا بعجل، لا بل أكرمهم بنفسه، ثم كذلك جاء بالعجل كاملًا.

سابعًا: قرّبه؛ أي: بنفسه كذلك، وأيضًا قربه ولم يقربهم، لم يقل لهم: تفضلوا، وإنما جاء ووضعه أمامهم لشدة إكرامه لهم حتى لم يكلفهم بالقيام من مكانهم.

ثامنًا: لما وضعه أمامهم، قال: ألا تأكلون؟ وهذا من التلطف مع الضيف، ولم يقل لهم: كلوا يأمرهم أمرًا، وإنما قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، يتلطف معهم صلوات الله وسلامه عليه.

تاسعًا: ثم إنه خافهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه لم يظهر لهم هذا الخوف من أدبه مع ضيوفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

صفة إبراهيم عليه السلام:

قال النبي ﷺ في صفته: «أتاني الليلة آتيان فأتياني على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا وإنه إبراهيم عليه السلام»[1].

وأخبر النبي ﷺ -كما في البخاري- أنه أشبه الناس بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنه وصف موسى، ووصف عيسى، فلما قيل له: صِفْ لنا إبراهيم، قال: «أشبهكم به صاحبكم»[2]، يعني نفسه صلوات الله وسلامه عليه.

إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى:

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سؤال من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، سأل ربه -جل وعلا- مسألةً، وهي أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أني أحيي الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ وهذا السؤال من الله لا على سبيل الاستفهام؛ لأن الله تبارك وتعالى ما اختار إبراهيم إلا على علم، ومدحه الله مدحًا لا يكاد يوصف في كتابه العزيز، وأمر باتباع ملته في أكثر من آية: ﴿فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فالله تبارك وتعالى سأله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ألست آمنت وانتهى الأمر؟ قال: بلى يا رب، ولكن أردت شيئًا آخر، ماذا تريد يا إبراهيم؟

قال: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قال أهل العلم: أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، هذا إيمان قلبي، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي: في قلوبكم، وتعرفون صفتها وتؤمنون بوجودها، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾.

والمسألة واضحة أن سؤال إبراهيم لم يكن عن شك، بدليل أنه سأل عن الكيف،

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٥٤) من حديث سمرة رضي الله عنه.

٢ أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضا مسلم (١٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولم يسأل عن القدرة، لم يقل: رب هل تستطيع أن تحيي الموتى؟ ولكن سأل عن الكيفية، فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾، ما هذه الطيور؟ أنواع هذه الطيور لا تُعلم، ولا فائدة من معرفتها؛ لأنه لو كان ثَمَّ فائدة من معرفتها لذكره الله لنا سبحانه، المهم العبرة، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ يعني: أي طير ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اجمعهن ثم قطعهن ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، يعني قطعها وضع جزءً من هذا الطائر على هذا الجبل، وجزءً منه في ذاك الجبل، وكذلك الطائر الآخر، وهكذا فرّقْ هذه الأجزاء على هذه الجبال، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ ادعُ هذه الطيور ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ يعني: يعيد الله خلق هذه الطيور مرة أخرى سبحانه وتعالى، والله على كل شيء قدير إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

أولاد إبراهيم عليه السلام:

ذُكر أن له أولادًا كُثر، أكثر من سبعة أولاد، وقيل: ثمانية أولاد، والله أعلم، لكن المشهور إسحاق من سارة وإسماعيل من هاجر.

الدروس والعبر المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام:

الفائدة الأولى: أننا مأمورون باتباع إبراهيم أمرًا خاصًا ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾، وذلك مما هو عليه من التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق، ولم يستثن الله -جل وعلا- شيئًا أبدًا، لك في إبراهيم أسوة حسنة إلا في شيء واحد فقط: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾ هذه ليس لكم فيها أسوة؛ لأن هذا نُسخ ومُنع، كان مأذونًا لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يستغفر لأبيه، ثم منعه الله تبارك وتعالى من ذلك.

الفائدة الثانية: في قصة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من أصول المناظرة، وذلك لما ناظره الرجل الذي يدعي الألوهية.

الفائدة الثالثة: إن من نعمة الله تبارك وتعالى على عبده، أن يلهمه شكر هذه النعم، ولذلك قال إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، والإنسان إذا أنعم الله عليه يتذكر هذه النعم، ويقتدي بنبي الله إبراهيم، فيحمد الله -جل وعلا- على ما ينعم عليه به.

الفائدة الرابعة: أن أفضل الوصايا ما وصى بها إبراهيم بنيه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

الفائدة الخامسة: كرم الضيافة، وهو ما وقع لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كما تقدم في قصة الملائكة.

الفائدة السادسة: مشروعية السلام، فلما دخلت الملائكة على إبراهيم قالوا سلامًا، قال سلام، فالسلام مشروع، بل مستحب أن الإنسان يبدأ أخاه بالسلام.

الفائدة السابعة: بيان إكرام الله لأوليائه، لما وُهِب لإبراهيم وسارة ولدًا على الكبر، وهذا من نعمة الله -جل وعلا- كما وهبهما إسحاق ووهب إبراهيم كذلك إسماعيل من أَمَتِه هاجر.

الفائدة الثامنة: التأمل في الكون يهدي الإنسان إلى ربه -جل وعلا-، إلى وجود خالق.

الفائدة التاسعة: مشروعية الهجرة، فإذا أوذي الإنسان في سبيل الله، ولم يستطع أن يظهر دينه؛ فعليه أن يهاجر أسوةً بنبي الله إبراهيم، بل وبأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

الفائدة العاشرة: الثقة بنصر الله وإن طال الأمد، لابد أن تثق بنصر الله -جل وعلا-، وإبراهيم أُلقي في النار، ويقول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وجاء النصر من الله -جل وعلا-.

الفائدة الحادية عشرة: المسلم إذا أراد أن يناظر لابد أن يكون عنده حجة، ليس لكل أحد أن يناظر بدون حجة وبدون برهان، بل استعد بحجتك وبرهانك بالعلم وناظر من شئت بعد ذلك.

الفائدة الثانية عشرة: من يتق الله يجعل له مخرجًا كما فعل الله تبارك وتعالى بأم إسماعيل وولدها لما تركهما إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في مكة، قالت: إلى من تتركنا، فما رد عليها، ثم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا، ثقة بالله -جل وعلا-، وما ضيعهم سبحانه وتعالى.

الفائدة الثالثة عشرة: رؤيا الأنبياء حق، وذلك لما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده امتثل واستجاب ولده إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

الفائدة الرابعة عشرة: الابتلاء والامتحان والاختبار من الله -جل وعلا- ليس المقصود منه المشقة والإيذاء، وإنما كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إذًا الاختبار ليس للمشقة، وليس للأذى وإنما حتى يعلم الله تبارك وتعالى الصابرين، ويعلم الصادقين سبحانه وتعالى.

الفائدة الخامسة عشرة: الأنبياء أشد الناس بلاءً، وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه سبحانه وتعالى.

قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام

المشهور في نسبه عند أهل الكتاب والنسابين أنه لوط بن هاران بن تارح أو آزر على الصحيح، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه يكون عمًا له؛ لأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هو ابن آزر كما جاء مصرحًا به في كتاب الله -جل وعلا-.

لوط صلوات الله وسلامه عليه ذُكِرَ في القرآن سبعًا وعشرين مرة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنَّ إبراهيم لما دعا إلى الله -جل وعلا- لم يؤمن به قومه، بل كفروا به وعادوه، وما آمن معه إلا قليل، وكان ممن آمن به لوط عليه السلام: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، فهاجر إبراهيم بأهله، وهاجر معه لوط ابن أخيه.

بعثة لوط عليه السلام:

بُعث نبي الله لوط إلى قوم بلغوا غاية السفه، والجهل، وقلة الحياء، ودناءة الأخلاق، وكانوا يجمعون إلى الانحطاط في الأخلاق ممارسة المنكرات التي تستقبحها ولا ترتضيها الفطر السليمة، وذلك أن الله -جل وعلا- خلق الإنسان وجعله ذكرًا وأنثى، وجعل في الذكر ميلًا إلى الأنثى، وجعل في الأنثى ميلًا إلى الذكر، وجعل في تركيب الذكر، وتركيب الأنثى قابلية لاجتماعهما مع بعض، وجعل منهما النسل، وقد يحدث أن يشذ بعض الناس عن هذه القاعدة، فيميل الذكر إلى الذكر، وتميل الأنثى إلى الأنثى، ولذلك يقال عنهم: (شواذ)؛ لأنهم خارجون عن القاعدة، خارجون عمّا عليه عامة الناس، أما أن يشذّ المجتمع كله، فهذا هو الشيء الغريب، وهذا هو الذي أنكره لوط عليه السلام وقومه، وهذا الشذوذ لا شك أنه مدعاة لانتشار الأمراض، وفساد المجتمعات، بل انقراضها.

قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننتُ أن ذكرًا ينزو على ذكر لكن لما ذكره الله في القرآن علمت أنه حق.

قال الله -جل وعلا- عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ هذه دعوة لوط صلوات الله وسلامه عليه.

يُخبر الله -جل وعلا- أن قوم لوط كذّبوا المرسلين، ومن كذب رسولًا واحدًا فهو كمن كذّب جميع الرسل، وقال الله عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، طالما أنهم كذبوا لوطًا؛ إذًا كذبوا إبراهيم، وكذبوا نوحًا، وكذبوا موسى، وعيسى، وكذبوا جميع المرسلين.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وهذه أخوة الطين؛ لأن الأُخُوَّة أخوتان: أخوة الطين وأخوة الدين، فأخوة الطين ينسبها الله تبارك وتعالى للمرسلين مع أقوامهم، وأما أخوة الدين فهي لا تكون إلا بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذه أخوة الدين، وهنا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أمين فيما أقوله وأدعو إليه من عند الله تبارك وتعالى، فلا أزيد ولا أنقص ولا أكذب على الله -جل وعلا-، ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، وهكذا جميع المرسلين، ما سألوا أحدًا أجرًا أبدًا، وإنما أجرهم على رب العالمين سبحانه وتعالى.

ثم قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إذًا جمعوا كفرًا وأمورًا شنيعة أخرى، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، قال لهم لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ترى ماذا كان جواب قومه؟ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ وتالله لقد جاؤوا بحجة غريبة لإخراج رسولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، جريمة لوط وجريمة أهله أنهم أناس يتطهرون، أناس لا يتدنسون ولا يخوضون الوحل الذي خاضه قومهم، فصار ذلك مدعاة لذمهم، فجعلوا غاية المدح ذمًا، بل -والله- لا يُمدح في قوم لوط إلا لوط وأهله الذين امتنعوا عن هذه الفاحشة، وهذا دليل على فساد الفطرة عند قومه، وما دفعهم إلى ذلك إلا اللجاج والعناد -والعياذ بالله-. فكان الله -جل وعلا- في عون المصلحين من الأنبياء والدعاة، كيف يتهم المصلح بمثل هذه التهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

غاية القبح والفحش في قوم لوط عليه السلام:

جمع قوم لوط معاصٍ كثيرة، أول معصيةٍ هي الكفر بالله -جل وعلا- والكفر بلوط صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك قال الله -جل وعلا- عنهم: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾، والمؤتفكات هم قوم لوط، وسموا بالمؤتفكات لقلب بلدهم عليهم، من الإفك وهو قلب الخبر عن وجهه الصحيح إلى الوجه الباطل.

إذًا جريمتهم الأولى التي بها كفروا وعُذّبوا هي الكفر بالله -جل وعلا-، ولكنهم جمعوا مع هذه الجريمة الكبرى جرائمَ أخرى كبيرة، ولكنها -لا شك- أصغر من هذه الجريمة العظمى، ومن هذه الجرائم التي لم يسبقوا إليها، وصاروا مثلًا فيها ما قال لهم نبيهم لوط، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، وهي الفاحشة التي عُرفوا بها، يأتون الرجال دون النساء، قال: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، يقطعون الطريق على المسافرين بقتلهم، وأخذ أموالهم، والاعتداء عليهم، قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ﴾ ذهب كثير من المفسرين إلى أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من ذلك، وقال آخرون من أهل التفسير عن إتيانهم في ناديهم المنكر، قالوا: عموم المنكرات من الأقوال والأفعال الشائنة.

إرسال الملائكة بالعذاب إلى قوم لوط عليه السلام:

ذكر الله -جل وعلا- أنه أرسل الملائكة إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ومرَّتْ هذه الرسل على إبراهيم في طريقها إلى لوط، وقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ فترك الملائكة نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، واتجهوا إلى قرية لوط.

وذُكِرَ أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قال لهم إبراهيم: فإن فيها لوطًا، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾، ثم قيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حُسِمَ الموضوع ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فسكت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وانطلقت الرسل إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ودخلوا القرية: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وليست هذه عادة الأنبياء مع ضيوفهم، ولكن الأمر أعظم من ذلك، أعظم من أن يكونوا مجرَّد ضيوف، بل إن لوطًا سيء بهم لما يخاف عليهم من اعتداء قومه على أعراضهم، ضاق صدره صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، والمعروف أن هؤلاء الملائكة تصوروا بصورة البشر، وكانوا حسان الوجوه، وهكذا الملائكة إذا تشكلت بصورة البشر؛ فإنها تتشكل بصور حسنة، والشياطين تتشكل بصور قبيحة، وكان قوم لوط قد نهوه عن الضيوف، وهذا يدلنا على أمر عظيم، ألا وهو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يعلمون الغيب، وإلا كان لوط علم أن هؤلاء ملائكة.

أدخل لوط ضيوفه إلى البيت، ثم جاءه قومه يُهرعون إليه، ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أما قلنا لك لا تضيف أحدًا.

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يُهرعون: مسرعون، كيف عرفوا؟

قالوا: أخبرتهم زوجته، وهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾، الخيانة في الدين، وكانت إذا رأتْ مثل ذلك أشعلتْ نارًا حتى يعلم قومها بوجود أولئك الضيوف، فهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، ولم تخنه في عرضه، فإن الله -جل وعلا- حمى الأنبياء من أن تلطخ أعراضهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لو أن لي بكم قوة أدفعكم بها أو آوي إلى ركن شديد.

واختلف في معنى ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أنها على ظاهرها، ويكون التقدير: (لو أني أجد قوة أدفعكم بها أو تكون هناك قبيلة)، ركن شديد آوي إليه، يدفع عني شركم.

القول الثاني: أنها للإضراب بمعنى «بل».

ويكون كذلك قول لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: أدفعكم بها، ثم رجع وقال: بل آوي إلى ركن شديد، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا من تمام يقينه بالله -جل وعلا-، وتوكله عليه.

هؤلاء بناتي:

وفي قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ لأهل العلم فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أراد بناته لصلبه، يعني خذوا بناتي لصلبي، ولا تأخذوا ضيوفي؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، تزوجوا بناتي، ولا يريد ازنوا ببناتي، فإن الإنسان يموت في الدفاع عن عرضه، فكيف بنبي كريم، ولكن كأنه أرشدهم إلى الحلال الطاهر.

القول الثاني: أنه أراد بنات القرية، بشكل عام، كما في قول الله -جل وعلا-: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

القول الثالث: وهو أنه لا يريد أن يزوجهم بناته، ولكنه قالها من باب الإلزام، قالوا: كمثل أن يضرب رجلٌ رجلًا فتأتي للضارب -وهو يحترمك ويقدرك- فتقول له: لا تضربه، فيستمر في ضربه، فتقول لا تضربه اضربني أنا، وأنت تعلم علم اليقين أنه لن يضربك لمكانتك عنده، فتقول اضربني أنا إن كنت لابد فاعلًا، ولذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، لماذا تقول هؤلاء بناتي؟ وأنت تعلم علم اليقين أنه ليس لنا في بناتك من حق، وهذا لعله أقرب الأقوال في هذه المسألة.

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ حاول لوط صلوات الله وسلامه عليه أن يستثير في قومه النخوة، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾، والخزي هو: فضح الإنسان أمام الناس، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ واحد فقط يمنع القوم، يردُّهم، يدافع، يتكلم، وهذا يدل على أن المجتمع كان فاسدًا كله، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ وهو كما قيل:

تُجاب لو ناديت حيًا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

وهنا التفتَ الضيوف إلى نبي الله لوط، وقالوا: ﴿يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ اطمئن، ولذلك كلما ضاق الأمر، واشتدت المحنة جاء الفرج من الله، بل يأتي الفرج كالغيث ينزل على الأرض بعد أن اشتدتْ حاجتها إليه، وفي الآية الأخرى قالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾.

نزول العذاب على قوم لوط:

لما حاولوا كسر الباب والدخول عليه خرج إليهم جبريل صلوات الله وسلامه عليه، فضرب وجوههم بطرف جناحه، فطمس أعينهم، فصاروا يتدافعون، ويصطدم بعضهم ببعض بالجدر لا يدرون أين يذهبون، ثم رجعوا إلى بيوتهم، وهددوا لوطًا وقالوا: نأتيك غدًا، انصرفوا وهدأتِ الأمور، واطمأن نبي الله لوط صلوات الله وسلامه عليه، قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وهنا قولهم: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ذُكِرَ أن لوطًا -صلوات الله وسلامه عليه- بعد هذه المحنة الشديدة قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال لهم لوط: «فالآن؟»، فقالت له الملائكة، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ لأن الأمر ليس بيد الملائكة، فهم رُسل، والأمر لله من قبل ومن بعد سبحانه وتعالى.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: بعد أن خرج لوط، وخرج معه أهله، وهنّ بناته، قال الله -جل وعلا-: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾، ولذلك سمّيت المؤتفكة، التي قُلبت رأسًا على عقب، قال: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾، والسجيل هو الحديد الشديد، ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ حجارة وراء حجارة، ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ على كل حجر اسم رجل منهم.

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

كيف فعل الله بهم؟

قيل: إن جبريل -صلوات الله وسلامه عليه- رفع القرية كلها عن وجه الأرض بجناحه حتى بلغ بها السماء الدنيا، وسمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب، وصياح الدِّيَكَة، ثم قلبها، ثم جاءتها الحجارة، ولذلك قال -جل وعلا-: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أي: رفعها ثم أهوى بها إلى الأرض، وقوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ما المقصود بـ﴿هِيَ﴾؟

المعنى الأول: أي: أن هذه الفعلة بقوم لوط ليست ببعيدة على مَنْ يفعل مثل فعلهم؛ لنفعلن بهم كما فُعل بقوم لوط.

المعنى الثاني: أي: القرية من الظالمين ببعيد، كما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يعني: هذه القرية ليست بعيدة من الظالمين، بل يرونها ويعرفونها ويعرفون ماذا حل بأهلها.

حكم تسمية فعلهم الخبيث باللواط:

هل يجوز أن نقول: إن ما فعله قوم لوط «لواطًا»، كما يسميه كثير من الناس؟

الصحيح أن هذه التسمية خطأ، وقد كان شيخنا أبو عبد الله محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله تعالى- يُنكر هذه التسمية، ويقول: من الخطأ أن نسميه لواطًا، بل نسميه كما سماه الله تبارك وتعالى، ونقول: «عمل قوم لوط» وكما سماه النبي ﷺ، أما أن تنسب إلى لوط فهذا خطأ، خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، بل وخطأ من حيث العقل.

أما خطؤها من حيث اللغة: لأن اللواط في اللغة الإصلاح، لاط يلوط لوطًا؛ أي: أصلح الشيء، ولذلك أخبر النبي ﷺ أن الساعة عندما تقوم، أول من يُصعق رجلٌ كان يلوط حوضه[1]؛ أي: يصلح حوضه.

ثم كذلك اسم لوط اسم طيب؛ أي: المصلح، وعندما نقول هذا لوطي أو هذا يلوط أو هذا لواط، هذا مثل تسمية الخمر مشروبات روحية، أو الربا فائدة، بل اللواط الإصلاح، واللوطي المصلح.

---

١ أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

وأما الخطأ من حيث الشرع: لأنه يُنسب هذا إلى لوط، ولوط بريء من ذلك، بل هو الذي كان ينهى عن هذه الفعلة الشنيعة، فصارت تنسب إليه!

وأما الخطأ من حيث العقل: أنت الآن هل تأنف أن يقال لك: «محمدي»؟ لا تأنف، بالعكس تفرح أن يقال لك: محمدي أي: أنك تابع لمحمد -صلوات الله وسلامه عليه-، ولكن يأنف الكثير أن يقال له: «لوطي» أي: نسبة إلى لوط، أو نسبة إلى اللواط، بل نسبة إلى لوط كما يقال: عيسوي، وموسوي، وإبراهيمي.

فالصحيح أن تسمية هذا الفعل الشنيع لواطًا خطأ، بل جاء في الحديث: «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط»[1]، ولم يقل: من رأيتموه يلوط أو يلاط به، فهي خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، وخطأ من حيث العقل كذلك.

حكم من وقع في هذه الفاحشة:

حكى شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع من الصحابة وغيرهم أن من فعل هذا الفعل يُقتل، وإن كانوا اختلفوا في صفة القتل:

فَنُقِلَ عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- أنه قال: يُرمى من شاهق، كما فُعِلَ بقوم لوط، رُفعت قريتهم ثم أُهوي بها.

وقال علي: يهدم عليه حائط.

وقال ابن عباس: يقتل بالحجارة، الفاعل والمفعول به رجمًا، كما يفعل بالزناة.

ويقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وهذه الجريمة أشنع من الزنا؛ لأن وطء من لا يباح بأي صورة من الصور أشدُّ عند الله من وطء من يباح في بعض الصور»؛ لأن هذه الزانية قد تتوب ويتوب ويتزوجها ويجوز له أن يطأها، لكن بأي حال من الأحوال لا يجوز أبدًا أن يطأ رجل رجلًا.

---

١ أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، ابن ماجه (٢٥٦١).

الدروس والعبر المستفادة من قصة لوط عليه السلام:

أولًا: شناعة جريمة قوم لوط.

ثانيًا: إذا انتكست الفطرة؛ فإنها ترى القبيح حسنًا، وتصير الجريمة أمرًا مألوفًا.

ثالثًا: صبر لوط -صلوات الله وسلامه عليه- على قومه.

رابعًا: اللجوء إلى الله عندما قال: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إذا قلنا إن «أو» بمعنى «بل»، أي للإضراب.

خامسًا: سقوط الأخلاق سبب لنهاية المجتمعات، كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

سادسًا: أن قوم لوط لم يُسبَقوا في هذه الفاحشة، فهم أول من أظهر هذه الفاحشة، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

سابعًا: كرم لوط، ورعايته لضيوفه، ومدافعته عنهم -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثامنًا: أن الزوجة لا شأن لها بزوجها إذا كانت على دين يخالف دينه، بل إن هذا لا يراعى عند الله -تبارك وتعالى-، بل الرعاية عند الله -جل وعلا- للمؤمنين.

قصة نوح عليه السلام

نوح عليه السلام

آدم الثاني، أو آدم الأصغر، وهو نبي الله نوح -صلوات الله وسلامه عليه-، وقيل له: «آدم الثاني»، أو «آدم الأصغر»؛ لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، فكل مَن على وجه الأرض هم من ذرية نوح -عليه الصلاة والسلام- مصداقًا لطلب نوح من ربه -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

ونوح عليه السلام من أولي العَزْم من الرُّسل، بل هو أول رسولٍ أُرسِل إلى أهل الأرض، وذلك أن آدم -صلوات الله وسلامه عليه- نبيٌّ، وليسَ برسولٍ، فنوحٌ -صلوات الله وسلامه عليه- هو أول رسول أُرسِل إلى الأرض.

وقد جاء أنَّ رجلًا سأل النبيَّ ﷺ: كم كان بين آدم ونوح؟ فقال: «عشرة قرون»[1].

وجاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[2].

والقرن كما ذكر أهلُ العلمِ إمَّا أنْ يكون مئة سنة، أو أنَّ المقصود من القرن هو الجيل من الناس، فكلُّ جيلٍ قرن، فيكون قريبًا من أربعين سنة.

ونوحٌ -صلوات الله وسلامه عليه- ذُكِر في القرآن الكريم ثلاثًا وأربعين مرةً.

إنَّ الناسَ بعد آدم مكثوا قرونًا طويلةً، وهم أمةٌ واحدةٌ على التوحيد، على الفطرة ﴿فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، حتى جاءتهم الشياطين، فأدخلت عليهم الشرور المتنوعة، وذلك أنَّ قومَ نوحٍ صلوات الله وسلامه عليه مات منهم أناسٌ صالحون، فجاءهم الشيطان، وأمرهم أنْ يُصَوِّروا لأولئك الصالحين صورًا، حتى إذا رأوهم تذكَّروهم، وتذكَّروا عبادتهم، فكان ذلك سببًا في نشاطهم في العبادة، واستمروا على ذلك زمنًا حتى مات أولئك القوم، فجاء مَنْ بعدهم، ثم مَنْ بعدهم، فجاءهم الشيطان، وقال لهم: إنَّ هذه الصور بها كانوا

---

١ أخرجه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في "الكبير" (٧٥٤٥)، وفي "الأوسط" (٤٠٣). من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٢٦٦٨، ٣٢٨٩): "وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون".
٢ أخرجه الحاكم (٣٦٥٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

يستشفِعون، وبها ينزل عليهم المطر، وكانوا يدعونها، فَادْعُوها، فَدَعَوْها من دون الله -تبارك وتعالى-، وهو مصداق قول الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، فعبدوا هذه الصور من دون الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو المشهور عن ابن عباس -رضي الله تبارك وتعالى عنهما-.

أساليب دعوة نوح عليه السلام لقومه:

لمَّا كفر أولئك القوم من ذريةِ آدم -صلوات الله وسلامه عليه-؛ أرسل الله إليهم نبيه نوحًا، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده، فلم يُقصِّر، واستخدم عدةَ أساليب في الدعوة إلى الله -جل وعلا -، فمن تلك الأساليب التي استخدمها:

أولًا: أسلوبُ التَّرغيب، كما في قول الله -تبارك وتعالى- عن نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ثانيًا: أسلوبُ التَّرهيب، فذكرَ الله عنه أنَّه قال لهم: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

ثالثًا: أسلوبُ المُحاورة، ومنه ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عنه أنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا * وَٱللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

رابعًا: أسلوبُ الصَّبر وتحمُّلِ الأذى، وكان هذا من أساليبه -صلوات الله وسلامه عليه- أن صبر وتحمل ما جاء منهم من أذى، وكلنا يعلم أن نوحًا -صلوات الله وسلامه عليه- مكث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا كما أخبرَ الله -تبارك وتعالى- عنه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

خامسًا: أسلوبُ التَّلَطُّفِ في الخِطاب، فكان -عليه السلام- يتلطَّفُ معهم في الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-، وذلك لما جاءوه وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء الأراذل -على قولهم- فكان قول نوح -عليه السلام-: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ

إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾.

وكذلك لمَّا اتهموه بالضَّلال، فما زاد أنْ قال -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ إي والله، كيف يكون به ضلالة، والله بعثَهُ لتزول به الضلالة؟!

ولما قالوا له: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾. وهكذا استمر في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، وقومه يكيلون له الأذى كَيْلًا، حتى إن هذا الأذى تمثَّلَ في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، هذا أول ردٍّ ردُّوا به على نوح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ يعني: نراك اتبعك أراذلنا، وضعفاؤنا، وما اتبعك كبراؤنا.

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أي: الذين لم يتمهلوا حتى في معرفة الحق من الباطل، بل كان رأيهم سريعًا، واتخذوا القرار دُونَ تمهُّلٍ، ودُونَ دِراسةٍ، ثمَّ قالوا كذلك: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، حتى تكونوا أنتم أفضل منا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وقالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾، هذا ردُّ قوم نوح -عليه صلوات الله وسلامه-، تمثل في هذه الأمور الثمانية:

الأول: أنت بشر كمثلنا، أنتبع بشرًا مثلنا؟!

الثاني: أتْبَاعُك أراذلنا، الذين يتخذون الرأي دون دراسة.

الثالث: ما نرى لكم علينا من فضل، أنتم كأمثالنا، ما لكم علينا من فضل حتى نتبعكم.

الرابع: نظنكم كاذبين.

الخامس: نراك في ضلال مبين.

السادس: لو شاء الله لأنزل ملائكة، لِمَ لَمْ يُنْزِل ملائكة، فنتبع الملائكة؟!

السابع: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

الثامن: بك جنون.

هكذا ردُّوا على نبي الله نوح واتهموه -صلوات الله وسلامه عليه-.

قوم نوح عليه السلام يواجهوا دعوته بالرد والأذى:

ثم واجهوه بالأذى، آذوه -صلوات الله وسلامه عليه-، وإلا بِمَ صار نوح -صلوات الله وسلامه عليه- من أولي العزم من الرسل إلا لذلك الأذى الذي أصابه من قومه -صلوات الله وسلامه عليه-.

اتهموه بالجنون، وهو مِصداق قوله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾.

واتهموه بالضَّلال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، اتهموه بالجَدَل العَقِيم: ﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾.

توعَّدُوهُ بالرَّجْمِ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾.

سَخِروا منه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

وأساؤُوا الأَدَب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وكل هذا لم ينفع مع قوم نوح -صلوات الله وسلامه عليه-، وتأملوا قولهم: ﴿قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إنْ كنتَ صادقًا أنَّك رسولٌ من الله -تبارك وتعالى- فائتنا بآيةٍ، فلا حاجة إلى الإكثار من الجِدال معنا، فقد بلَّغتنا، ونحن كذَّبناكَ، وسَئِمنا من كثرة الخُصومة معك، وقد توعدتنا بعذابٍ فأتنا بالعذاب.

نوح عليه السلام يصبر على أذى قومه:

وبقي نوح -عليه السلام- ثابتًا على دينه متوكلًا على ربه -تبارك وتعالى-، مشفقًا على أمته، دائبًا في دعوته مئاتَ السِّنين وقومه لا يزدادون إلا سخريةً منه وعنادًا وإصرارًا على ما هم عليه من الشِّرك حتى قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَنَسْرًا﴾، ومع هذا استمرَّ في دعوته حتى قال الله له: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، انتهى الأمر لن يؤمن أحد، أدَّيْتَ الذي عليك، ولن يتّبعك أحدٌ بعد الذين اتبعوك، عندها قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، حكمتَ يا رب أنه لن يؤمن أحد بعد الذين آمنوا، إذًا يا ربِّ عجِّل لهم العذاب، فدعا نوح -صلوات الله عليه- على قومه، ولذلك عندما يأتي الناس نوحًا يوم القيامة فيقولون: «يا نوح أنت أول رسول أرسله الله إلى الأرض، اشفع لنا عند ربك، فيقول: إني دعوت على قومي»[1].

نوح عليه السلام والتحدي الأكبر:

كان نوح -عليه السلام- لما واجهه قومه بالأذى وتوعَّدوه بالرَّجمِ وغير ذلك تحدَّاهم أكبرَ التَّحدي، حتى قال بعضُ أهل العلم: إنَّ مُعجزة نوح -صلوات الله وسلامه عليه- تتمثل في ذلك التَّحدي الذي تحدَّى به قومه، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، هكذا تحدَّى نوح قومه -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا الكلام من نوح يدل على ثِقة ويقين، ولا يكونان أبدًا إلا لأمثالِ نوح -صلوات الله وسلامه عليه-.

وهذا التحدي تمثَّل في خمس صور:

١- قوله لهم: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، لا تختلفوا عليّ، لا يقل أحد شيئًا والآخر شيئًا، مع أن اختلافهم جيد بالنسبة له، ولكنه قال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ لا تختلفوا عليّ، اتفقوا حتى تكونوا كالجسد الواحد.

٢- ثم قال: استعينوا بشركائكم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله -تبارك وتعالى-.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، لا تكتموا، لا تسرُّوا لبعضكم البعض، لا تجلسوا في الليالي، تحدثوا نهارًا جهارًا.

٤- ﴿ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ﴾ أنجزوا، اتفقوا، اعدموني، ارجموني، افعلوا ما تشاؤون.

٥- ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ولا تمهلوني.

استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- حتى بلغ السيل الزُبى، عند ذلك قال نوح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، و﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، وذكر الله عنه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنْتَصِرْ﴾، ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ عندها، بعد أن أتمَّ نوح -صلوات الله وسلامه عليه- دعوته لقومه أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

قال أهل العلم: سخروا منه لأمرين اثنين:

الأمرُ الأول: أنهم قالوا: يا نوح قد كنتَ نبيًا فصِرتَ نجارًا، فسخِروا منه.

الأمرُ الثاني: أنهم قالوا: يا نوح مَنْ يصنع السفينة يسير بها في البحر، وأنت في البرّ! ما تصنع بهذه السفينة؟

وكان نوح -صلوات الله وسلامه عليه- بكل ثِقة ويقين يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ولكن تسخرون عاجلًا، ونسخر آجلًا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

وتركوا نوحًا، وصنع السفينة، وذكروا أنه صنع السفينة في أربعينَ سنة، وذكر بعضهم أنه غرس أشجارًا ثم رَعَاها حتى قوِيَت واشتدَّت، ثمَّ أخذَ منها الخشب، وصنع منها السفينة،

وكلّ هذا من روايات بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تُكَذَّب.

وقد بناها سفينةً عظيمةً وجعلها ثلاثةَ طوابق، وجعل الطابق السفليّ للدواب والوحوش، والطابق الأوْسَط للبشر الذين معه، والطابق الأعلى للطيور، قال الله -تبارك وتعالى- بعدما صنع نوح السفينة وأتمَّها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ما آمن معه إلا قليل، جلس يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا، تسعمئة وخمسون سنة، وما آمن معه إلا قليل، فلا تحزن إذا كنت تدعو إلى الله -تبارك وتعالى- ولم يؤمن معك إلا قليل، بل لا تحزن إن لم يؤمن معك أحد، المهم احزن إن قصرتَ أنت في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، أما اتباع الناس لك فالأمر ليس في يدك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

عدد مَنْ آمن مع نوح عليه السلام:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وهذا القليل -كما ذكرت كتب أهل الكتاب- أنهم لم يتجاوزوا الثمانين من رجال ونساء.

وقال بعضهم: ثلاث وثمانين، والله أعلم بعددهم، ولكن يكفينا قول الله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، ويكفينا أنهم حملتهم مع دوابهم وطيورهم سفينة فهم لا شك قليل، وسفينة مشحونة كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: شُحنوا فيها شحنًا.

نوح عليه السلام يركب سفينته وينزل العذاب على قومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنّ نوحًا -عليه الصلاة والسلام- لما ركب السفينة قال: بسم الله تسير وتجري، وبسم الله ترسو، فهذا نوح -عليه السلام- دائمًا يتعلق بربه -تبارك وتعالى-، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، فجَّرّ الله الماء من الأرض

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ صارت الأرض كلها عيونًا، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ التقى ماءُ السماء بماءِ الأرض، ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قُدِّر بأمر الله -تبارك وتعالى-، هنا الآن ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ تصْنَعُ سفينة في البر! صرتَ نجارًا بعد أن كنتَ نبيًا! هذا وقت السفينة ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ الدُّسُر: المسامير، ألواح ومسامير، ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أي نوحًا -عليه الصلاة والسلام- ومَنْ معه ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: برعايتنا، وعنايتنا، وحفظنا، ورحمتنا، حَفِظَها الله -تبارك وتعالى-، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ هذا الجزاءُ يا نوح لما كفروك وعادوك وآذوك، انظر الآن كيف دمرهم الله -تبارك وتعالى-.

يقول الله -جل وعلا-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ موج كالجبال، قد لا يستطيع الإنسان أن يتصور هذا الأمر، ولكن يكفينا أن نصدق قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ ينادي ابنه ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ حتى تنجو، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يقول لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أولئك كافرون سيهلكهم الله، وهذه شفقة في قلب نوح على ابنه، شَفَقَةُ الأب على ابنه؛ ولذلك الله -تبارك وتعالى- وصى الإنسان بوالديه، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ لكن لم يوصِ الأب أبدًا، ولم يوصِ الأم بالولد؛ لأن هذه الشفقة مغروسة في قلوبهم، في قلوب الآباء والأمهات، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ يظن أن الأمر تنفع معه الحيلة، بل هو كما في حال المؤمنين يوم القيامة عندما يمشون على الصراط، أتظنون أن الذي يمشي على الحبل في الدنيا هو الذي سيمشي على الصراط!! بل التثبيت من الله -تبارك وتعالى-، كذلك الأمر هنا، أتظن أنه كلما صعد الإنسان إلى أعلى نجا؟! لا، وإنما من أراد الله لهم النجاة ينجون، ولذلك لما قال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ جاء الرد من أبيه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ لا جبل، ولا غير جبل، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ وهم الذين ركبوا في السفينة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ الأمر إذًا لحظات، اركب.. سآوي.. لا عاصم.. حال بينهما الموج.. ذلك أن السماء قد انفتحت كالقُرَب، والأرض تفجرت كالعيون، والتقى ماءُ السَّماء مع ماءِ الأرض حتى عَلا أعلى شاهق في الأرض، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، وأنجى الله نوحًا ومن معه.

بعد أن أغرق الله جميع الكافرين قال: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ﴾ أدَّيتِ ما عليكِ، فهي جندٌ من جنود الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ السماء المقصود به المطر، توقف المطر، الأرض ابتلعت ما عليها، ﴿وَغِيضَ ٱلْمَاءُ﴾ غِيضَ: يعني نَقصَ، ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، هنا توقفت السفينة على البر مرة أخرى، والجُوديّ هو اسمُ جِنسٍ يطلق على أيِّ جبل، فيقال: جُوديٌّ كذا، وجُوديٌّ كذا، وجُوديٌّ كذا.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

هكذا، لحظات وانتهى كل شيء كأنه حُلم، موج، وعذاب، ولا أحد إلا نوح -عليه الصلاة والسلام- ومَنْ معه في السفينة والأرض يباب، كل من عليها هلك، كل من على وجه الأرض؛ ولذلك قيل لنوح: إنه آدم الثاني أو آدم الأصغر.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

يقول الله -تبارك وتعالى- بعد أن انتهى الأمر: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ لأن الله قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، فقال نوح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: إنك أخبرتني أنك تُنْجيني وأهلي وأنت أحكم الحاكمين، ما الذي حصل؟ لِمَ لَمْ ينجُ؟ ولكن هذا من أدب نوح مع ربه -تبارك وتعالى- أن تكلم بهذه الطريقة، فقال الله له: ﴿يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ إنه عمل غير صالح، ما معنى إنه عمل غير صالح؟ قال بعض أهل العلم من أهل التفسير لها معنيان:

الأول: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح؛ أي: هذا العمل منك يا نوح غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم، يعني: دعاؤك هذا عملٌ غير صالح؛ ولذلك جاء بعده التأنيب في قوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾.

الثاني: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح أي: ركوب الكافر معك، أنت لا يركب معك إلا المؤمن، وهذا كافر كيف يركب معك؟ إنه عمل غير صالح منا إذا أركبنا الكافر معك.

وهناك قراءة أخرى: «إنه عَمِلَ غير صالح» يعني: إن ابنك عَمِلَ عَمَلًا غير صالح، فلا ينجو معك، وهي قراءة سبعية صحيحة.

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه:

وهنا في غرق ولد نوح وغرق امرأته كذلك -كما سيأتي- يتبين أن الأسباب كلَّها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، وذلك أن الاتصال بين الناس مع الأنبياء فوق اتصال البنوة، والأبوة، والزوجية، بل هذا هو أشد اتصال بين الناس، أشد الناس الذين تتصل بهم في هذه الدنيا وتشفق عليهم؛ إما أن يكون اتصال أبوة «أب أو أم»، أو اتصال بنوة: «ابن أو بنت»، أو اتصال زواج، ولكن هذا الاتصال إن لم يكن معه اتصال عقدي؛ فإنه لا ينفع، ولذلك لم يغنِ نوحٌ عن ابنه وزوجته، ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه، ولوط كذلك عن زوجته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

خيانة دين لا خيانة فراش:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ هنا: الخيانة لا شكَّ أنها خيانة الدين، وليست خيانة الفراش بأي حال من الأحوال، وذلك لأسباب كثيرة منها:

أولًا: أنه لو كان من امرأة نوح وامرأة لوط زنا؛ لكان قومهما عيراهما بهذا، كما كان يُعَيَّر نوح قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾، وغير ذلك من الاتهامات التي اتهموا فيها نوحًا، ولو كانت امرأته كذلك لقالوا: فراشك غير طاهر، فلما لم يُتهم بهذا عُلِمَ أن الخيانة لم تكن خيانة الفراش.

ثانيًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾، وقال: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ وذلك أن بعضهم قال: إن ابن نوح هذا الذي لم ينجُ كان ابن زنا، وهذا كذب، بل الله سماه ابنًا له، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾، فنسبه إليه، وقال عن لوط: ﴿آلَ لُوطٍ﴾ فنسبهم إلى لوط -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثالثًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾، ونوح طيب فله الطيبات، ولكنها خبيثة في الدين، في العقيدة، فأما الخباثة في العرض فالله نزَّه أنبياءه عن ذلك.

رابعًا: لو كانت الخيانة بالزنا لما قال الله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾؛ لأن الزنا لا تخرج الإنسان من الملة، وإنما الذي أخرجها من الملة خيانةُ الدين، فلما خانت نوحًا -عليه الصلاة والسلام- في دينه؛ حكم الله عليها بدخولها النار.

خامسًا: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، فلا يمكن أبدًا أن الله يختار نساءً لأنبيائه أمثال هؤلاء، ولذلك نصَّ أهل العلم: أن من اتهم امرأة نبي بالزنا؛ فهو كافر خارج من ملة الإسلام.

أمَّةُ محمد ﷺ تشهد لنوح عليه السلام:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي» تصوروا تسعمئة وخمسون سنة، وبعد هذا كلِّه تأتي أمة نوح يوم القيامة تقول: «ما جاءنا من نبي»، ما بلغنا، فيقول الله لنوح: «من يشهد لك؟» أنت تقول: بلغت، وهم ينكرون، من يشهد لك يا نوح فيقول: «محمد ﷺ وأمته» يقول النبي ﷺ: «فنشهد أنه قد بلغ»، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والوسط العدل»[1].

فتشهد هذه الأمة، تشهد بماذا؟ تشهد بأن الله صادق، تشهد بأن النبي صادق، تشهد بأن ما جاء في كتاب الله حق، فتشهد أن نوحًا قد بلغ.

---

١ أخرجه البخاري (٣٣٣٩).

الدروس والعبر المستفادة من قصة نوح عليه السلام:

أولًا: عقاب قوم نوح فيه دليل على أن الجزاء قد يكون أحيانًا في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

ثانيًا: إنّ جميع الرسل من نوح إلى محمد -عليهم السلام- متفقون في الدعوة إلى التوحيد الخالص، كلهم يدعون إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده لا شريك له.

ثالثًا: من آداب الدعوة ما قام به نوح أنه دعاهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجِهارًا، وصبر على هذا صبرًا عظيمًا.

رابعًا: ينبغي ذكر الله دائمًا والاستعانة به ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

وقفة:

يُروى أن نوحًا بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل، فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيتٍ له بابان، دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر.

قصة داود عليه السلام

داود عليه السلام

ذُكر نبي الله داود في كتاب الله -تبارك وتعالى- ست عشرة مرة، وقد طالت مدة ملكه -صلوات الله وسلامه عليه-، حتى قالوا: إنها بلغت أربعين سنة.

مقدمة لابد منها:

والكلام على قصة داود -صلوات الله وسلامه عليه-، يستلزم أن نقدم بمقدمة، وذلك أن بني إسرائيل انتشرت عندهم الجرائم، وعظمت المظالم، وقتلوا مَنْ قتلوا من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، فسلط الله -تبارك وتعالى- عليهم من لا يرحمُهم من جَبابِرة الملوك، يقال لهم: العماليق، فكان أن بلغ الأذى مداه، فذهبت بنو إسرائيل إلى نبي لهم، المشهور أن هذا النبي اسمه: شمويل، وقيل اسمه: سمعون، وسمي: سمعون؛ لأن الله -تبارك وتعالى- استجاب وسمع دعاء أمه له، فرزقها هذا الولد فسمَّته سمعون، ولا يعرف اسم هذا النبي على الحقيقة، بحيث لم يأتِ في كتاب الله -تبارك وتعالى- تسمية له، ولا في سنة النبي ﷺ، ولكن الذي جاء أن بني إسرائيل ذهبوا إلى نبي من أنبيائهم، وطلبوا منه أن يُعَيِّن لهم ملكًا يتبعونه ويقاتلون الجبابرة من العماليق تحت رايته، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا جهاد الدفع.

وأما جهاد الطلب فهو خاص بأمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين بعث الله نبيهم للأسود والأحمر، أما الأنبياء السابقون؛ فإنهم بُعثوا إلى أقوامهم خاصة، فما كانوا يجاهدون لنشر دينهم، وإنما كان الجهاد عندهم دفاعًا؛ ولذلك ما أحل الله لهم الغنائم، وكانوا إذا انتصروا في معاركهم جمعوا الغنائم في مكان ما، ثم نزلت نار من السماء، فأخذتها، ولذلك قال النبي ﷺ: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بخمس»، وذكر منها: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي»[1].

---

١ أخرجه البخاري برقم (٣٣٥)، وأخرج الترمذي (٣٠٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها".

قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي: أن دواعي القتال موجودة، وهي: أنَّ الأعداء أخرَجُونا من دِيارنا، وأخذوا أبناءنا سَبيًا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾.

ثم ذكر الله -تبارك وتعالى- أن نبيهم قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فجاء الاعتراض، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ﴾، اعترضوا لأمرين اثنين: أنهم أحقُّ بهذا الملك، وأن طالوت لم يؤتَ سعة من المال، فإذا كان الأمر كذلك كيف يكون له الملك علينا، ولا شك أن عنادهم وردَّهم لأقوال الأنبياء وعدم طاعتهم، دَيْدَنهم، وسبب اعتراضهم أن طالوت لم يكن من نَسْلِ الأنبياء، وهو أن الأنبياء في ذلك الزمن، كانوا من نَسْلِ لاوي بن يعقوب، ولم يكن طالوت كذلك من نَسْلِ الملوك، وذلك أنَّ ملوك بني إسرائيل كانوا من نسل يهوذا بن يعقوب، وطالوت على المشهور أنه من نسل بنيامين، أخي يوسف الشقيق، فالملك والنبوة كلها في نسل يعقوب، فبنو إسرائيل كلهم أولاد يعقوب -صلوات الله وسلامه عليه- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وهذا اختبار من الله لهم هل يستجيبون لأمر نبيهم أو يعاندون كما هي عادتهم، فلما ردّوا عليه بهذا الكلام أجابهم أن القضية ليست قضية نسل ملوك ونسل أنبياء، وهذا هو **السبب الأول** الذي من أجله تم اختيار طالوت.

السبب الثاني: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ﴾.

السبب الثالث: ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ أي: وزاده بسطة في الجسم.

ثم حذرهم قائلًا: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ليس الأمر إليكم، الأمر لله، يؤتي ملكه من يشاء وينزع المُلك مِمَّن يشاء، يُعِزُّ مَن يشاء ويذِلُّ مَن يشاء، ولكن أين بنو إسرائيل من هذا؟ نعم استجابوا ولكن بعد تردد وعناد.

يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي: وصل إلى مكان قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وقيل: إن هذا النهر يقال له: نهر أدمي بين الأردن وفلسطين.

قال: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ثم استثنى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، وذلك أنهم أصابهم عطش، قال سنَمُرُّ على نهر، والله مبتليكم به لا تشربوا منه، لماذا؟ حتى يختبر طاعتهم، فإذا أطاعوه هنا فسيطيعونه في المعركة، وإذا عصوه هنا سيعصونه في المعركة، ليس على طريقتي، ولا هديي، ولا سنتي، ولا يتبعني، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، ثم أخذته الشفقة عليهم؛ لأنهم عطاشى، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، وهذه المعصية الثالثة.

يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة بأيديهم ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، أربعة مواقف متصلة كلها فيها كسر وتحطيم للعزيمة وأذى، وأيّ أذى.

ثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ فنقص العدد.

ثم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، فنقص العدد حتى صاروا ثلاثمئة وثلاثة عشر، من ثمانين ألفًا لم يبقَ إلا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلًا.

ولذلك قال البراء بن عازب -رضي الله عنه- حدثني أصحاب محمد ﷺ مَنْ شهد بدرًا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمئة[1].

قال -سبحانه وتعالى-: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، وجالوت زعيم العماليق الذين أسروا أبناءهم وأخذوا ديارهم. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، إذاً القضية ليست قضية عدد، الثمانون ألفًا عجزوا، وبضعة عشر وثلاثمئة انتصروا، ليست قضية عدد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

---

١ أخرجه البخاري (٣٩٥٧).

بداية داود عليه السلام مع بني إسرائيل:

يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ هنا ظهر اسم داود -عليه السلام-، وكان من الصفوة، من الذين ثبتوا مع طالوت، وهذا يدلنا على أنه يمكن للنبي أن يكون تابعًا لغير النبي، ولكن هذا كان قبل نبوة داود، ولكن مع هذا جعل الله طالوت ملكًا عليهم بأمره -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

داود عليه السلام يُؤتى المُلك والنبوة:

قال الله -عز وجل-: ﴿وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، المُلك في الدنيا، ملك الدنيا، مَلكَ بعد طالوت، وآتاه الحكمة، وهي: النبوة.

ذُكر أن داود إنما حضر القتال مع إخوته، وكانوا ثلاثة، وكان داود صغيرًا في ذلك الوقت له سبع عشرة سنة فقط، فلما دخل هذه المعركة؛ قيل: إن جالوت خرج إليهم، وقال: من يبارزني؟ وتحدى الناس، فقام داود وقال: أنا له، فأشفق عليه طالوت، وقال: إنك صغير، قال: بل أنا له، قال: إنك صغير، قال: أنا له، قال: اخرج، وذُكر أن طالوت قال له: إن قتلته فأنت المِلكُ بعدي، وأزوجك ابنتي، وهذا جائز، فيجوز للمَلِك أن يُحفِّز الجنود بالعطَايا، كما قال النبي ﷺ: «من قتل قتيلًا فله سَلَبُه»[1] يُشجِّعهم.

وخرج داود -عليه السلام- إليه، فلما واجهه نظر إليه جالوت، وقال: أنت صغير كيف تجرؤ أن تقاتلني؟ قال: أنا الذي سيقتلك، فغضِبَ جالوتُ من هذا الكلام، وأراد أن يضرب داود، فامتنع عن ضربته، ثم رماه بالمقلاع على المشهور، فرماه وأصابه، فَخَرَّ صريعًا قتيلًا، ثم كبّر المسلمون، فوقعت الهزيمة في جيش جالوت.

وداود -عليه الصلاة والسلام- من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، جمع الله له الملك والنبوة، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

---

١ أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

ما مَنّ الله به على داود عليه السلام:

مَنَّ الله -سبحانه وتعالى- على داودَ بأشياءٍ كثيرةٍ، منها:

أولًا: قال الله -تبارك وتعالى- لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾، فَذَكَّره بداود؛ لأنه كان صابرًا، اقتدِ بداود، صبر على ما ابتليناه به، وعلى أذى قومه.

ثانيًا: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾، فوصفه الله أنه كان قويًا في طاعة الله، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، حتى قال النبي ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»[1].

وكان قويًا كذلك في أمره ونهيه وحُكمه ومُلْكِه، وكان قويًا في صبره على ما ابتلاه الله -عز وجل- به، فكان قويًا من كل جهة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثالثًا: قال الله عنه: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رَجَّاع إلى الله -سبحانه وتعالى-.

رابعًا: قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، ثم قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ الطير كذلك نادنياها لأجله، وكلها أواب؛ أي: رَجَّاع يُرَجِّع ما يقول، يسبِّح فتُسبِّح، يذكر الله فتهتز لذكر الله -عز وجل-، الطير والجبال.

خامسًا: قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه، قواه من ناحيتين:

<u>الناحية الأولى</u>: جعل هيبةً لمُلكهِ في قلوب الناس جميعًا.

<u>الناحية الثانية</u>: شَدَّ الله مُلْكَه بجنده، فكان به جند كثيرون، وحكم أربعين سنة.

سادسًا: قال الله عنه: ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: النبوة، وقد قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

سابعًا: أعطاه الله فَصْل الخِطاب، وفَصْل الخِطاب قِيل: هو الفَهْمُ القويُّ الثَّاقبُ، فإذا جاءت أمامه قضية يعرف كيف يحكم فيها -صلوات الله وسلامه عليه- وقيل: حُسْنُ الخِطاب يتكلَّم الكلام القليل، وتكون فيه المعاني الكثيرة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثامنًا: أعطاه الله الزَّبُور، ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾، فمَنَّ الله عليه بهذا الكتاب.

---

١ أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

ويقول الله -عز وجل- في تفصيل ما وقع لداود -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وقال كذلك: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾، هذا التسبيح من الجبال هل هو على حقيقته، كانت تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، أو أنه كناية عن وقوف الطير في السماء مع ذكر داود -عليه السلام-؟

الصحيح الذي عليه أهل العلم أنها كانت تسبح على الحقيقة، وليس هذا على الله بعزيز، الذي أنطق البشر ليسَ بعاجزٍ عن أن يُنطِق الطير والجبال سبحانه كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: على الحقيقة، ولكن القضية ماذا؟ ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وكما قالتِ النملة: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.

قال الله عز وجل عن داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، ذُكر أن داود -عليه السلام- كان يفتل الحديد ولا يحتاج إلى نار أو مطرقة، ألانَ الله له الحديد كما ألان لغيره العجين، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ يعني: حِلَق مقدرة، ثم المسامير واجعلها متناسبة، ﴿ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ دروع، هكذا أمر الله داود -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقال -عز وجل-: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ في هذه الآية ثلاثُ قراءات:

فإمَّا أنْ يكون الفاعلُ هو الله -سبحانه وتعالى- «لِنُحصِنَكم»، أو داود «ليُحْصِنَكم»، أو اللبوس نفسه، «لتُحْصِنكم»، وكلها قراءات ثابتة عن رسول الله ﷺ.

نبأ الخصم:

ذكر الله -تبارك وتعالى- قصةً حدثت لداود، وهي أشهر قصص داود -عليه السلام-:

يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى

بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾، هذه فتنةٌ وقعت لداود -صلوات الله وسلامه عليه-، ذُكر أن داود -عليه السلام- كان قد قسم الأيام إلى ثلاثة: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يعبد ربه -تبارك وتعالى-، ويوم يُسَيِّر به أمور الرعية.

فكان اليوم الذي يتفرغ فيه لعبادة ربه -تبارك وتعالى- لا يدخل عليه أحد، فقدر الله أن تسور عليه المحراب رجلان، فدخلا عليه فجأةً، ففزِع منهما وخاف، وهذا الخوف الطبيعي، ولا يضر ولا يَعِيب، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾.

قال: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، قالوا: لا تخفْ، خَصْمَان، بغى بعضنا على بعضٍ، قال بعض أهل العلم أنَّهم كانوا جَماعة وليس اثنين والله أعلم، ولكن ظاهر الأمر أنهما كانا اثنين فقط، ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا﴾، فالأول قال: إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة، أمَّا أنا فلي نعجةٌ واحدةٌ، فقال لي أخي أكفلنيها ماذا تفعل بواحدة، وعزّني في الخِطاب أي: غلبني في الكلام، لديه حجة، والآن أنا لستُ راضيًا، قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، هذا الأصل أنه إذا كانت خُلطة يصير فيها الطَّمَع.

التفسير الصحيح للفتنة:

والآية ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ عند أهل العلم تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنهما هما رجلان كظاهر الآية، أحدهما له تسع وتسعون نعجة، والآخر له نعجة واحدة، ودخلا على داود وسألاه، وأجابهما بما علم، أو بما ظهر من المسألة، والفتنة كانت في إجابته قبل سماعه للرأي الآخر، سمع الأول الذي قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ ولم يقل للثاني: ما رأيك؟ لم يسمع من الطرف الآخر.

وهذا له جواب: وهو أن داود -صلوات الله وسلامه عليه- التفت إلى الثاني فسكتْ، فدل هذا على أنه مصدق لما قال الأول، فحكم بناءً على هذا، أو أن داود -صلوات الله وسلامه عليه- قال: إن كان كما تقول فقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وتكون الفتنة هنا أنَّ داود نجح في هذا، وخرَّ راكعًا وأناب إلى الله -سبحانه وتعالى-، فتكون مدحًا.

المعنى الثاني: أنهما ملَكان، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، ولذلك تسوروا المحراب دون أن يعلم بهما، وهذان الملَكان سألا داود اختبارًا هل يجيب قبل أن يسمع من الطرف الثاني أو ينتظر حتى يسمع، فتسرّع وأجاب قبل أن يسمع من الطرف الثاني، فاختفيا، فعلم داود أنهما أرادا اختباره وهذا ظاهر، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم؛ ولذلك استغفر وركع وأناب، أي: رجع وتاب، والله أعلم.

عبادة داود عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأفضل الصيام عند الله صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا»[1].

وقصة داود لم تنته؛ لأن لها تعلقات مع سليمان -صلوات الله وسلامه عليه -، فنُؤجِّل ما كان مع سليمان إلى قصة سليمان -صلوات الله وسلامه عليهما-.

الدروس والعبر المستفادة من قصة داود عليه السلام:

أولًا: إن قهر الله للجبابرة قد يجعله في أضعف خلقه، كما هزم جالوت وجنوده العماليق بثلاثمئة وبضعة عشر، وجعل داود الذي لم يجاوز السابعة عشرة من عمره هو الذي يقتل جالوت.

ثانيًا: أن الضعيف لا ييأس من رحمة الله، ولا ييأس من النجاح أبدًا، بل قد ينصره الله -جل وعلا- كما فعل لداود مع جالوت.

---

١ أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

ثالثًا: انتصار داود لم يُغيِّره، بل كان عابدًا لله -تبارك وتعالى-، عارفًا لفضل الله -جل وعلا- عليه.

رابعًا: طاعة الله -سبحانه وتعالى- وشكره يوجب المزيد، ولما زاد داود من طاعته لله -جل وعلا- زاده الله من فضله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

خامسًا: الابتلاء سنة الله في خلقه، للأنبياء وغير الأنبياء، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

سادسًا: احتمال الأنبياء للأذى كما وقع لشمويل -صلوات الله وسلامه عليه- من بني إسرائيل لما قالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

سابعًا: مكانة أصحاب محمد ﷺ مقارنة مع بني إسرائيل.

ثامنًا: إمكان اجتماع النبوة والمُلْك في شخص واحد كما وقع هذا لداود -عليه السلام-.

تاسعًا: أن نعلم أنَّ الله -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير.

قصة سليمان عليه السلام

سليمان عليه السلام

ذُكِر نبي الله سليمان في القرآن سبع عشرة مرة، وقصصه كثيرة وتحتاج إلى وقفات:

أولًا: قصته مع ملكة سبأ.

ثانيًا: حاله مع خيله الصافنات.

ثالثًا: فتنته.

رابعًا: بيان ما وهبه الله -تبارك وتعالى- من المُلْك.

خامسًا: ما اتُّهِمَ به من الكفر.

سادسًا: بعض أحكامه.

سابعًا: وفاته.

قال الله -تبارك وتعالى- عن نبيه سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، الوارث هو نبي الله سليمان، والموروث هو أبوه نبي الله داود، وهذا الميراث ليس ميراث مال، وإنما هو ميراث الحكمة، ميراث النبوة، ميراث العلم، بدليل أنه قد عُلم من كتب السير أن داود -عليه الصلاة والسلام- كان له من الأولاد كثير، حتى إنه قيل: له تسعة عشر ولدًا، فكيف يكون الوارث سليمان وحده، ثم كذلك قد نصَّ النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- على أن الأنبياء لا يورثون فقال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[1]، وقال: «إن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا»[2]، ثم لو كان الميراث المذكور في السورة من القرآن هو ميراث المال لكان ذكره دون فائدة؛ لأنه معلوم من الضرورة أن الولد يرث أباه، وإنما أراد ميراثًا آخر، ألا وهو ميراث النبوة، والعلم، والحكمة.

من فضائل سليمان عليه السلام:

امتاز نبي الله سليمان بالفطنة والحكمة في معالجة الأمور، وكذلك بالعدل بين الرعية، وقد ذكر الله -تبارك وتعالى- قصته لما مَرَّ على وادي النمل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ

---

١ أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة.

٢ أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه في (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وهو في "صحيح الجامع" (٦٢٩٧).

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذا كلام بين النمل تفهمه النمل، ووهب الله -تبارك وتعالى- نبيه سليمان موهبة ألا وهي أنه يفهم منطق الطير، كما قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

قالت نملة تخاطب النمل: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: خشيةَ أنْ يحطمكم ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، ثم اعتذرت له، وقالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، لا يقصدون إيذاءكم؛ لأنه ليس من هَدْيِ الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- أنْ يتعرضوا إلى إيذاءِ أحدٍ، بل جاؤوا مشاعل نور، وجاؤوا بالخير العَميم، فكيفَ يكونُ منهم هذا الإيذاء، فاعتذرتْ له تلكَ النَّملة، سَمِعَ وفَهِم -صلوات الله وسلامه عليه- كلامها، فتبسَّم ضاحكًا من قولها، ثمَّ شكر الله -جل وعلا- على ما وهبه من هذه النعمة، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾، ولم ينسَ كذلك ما أنعم الله به على والده بالنبوة، فقال: ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة إحدى قوائمها» -على ظهرها ورافعة إحدى قوائمها- وفي رواية: «تستسقي، تدعو الله أن يسقي الأرض، فقال: ارجعوا، فقد كُفيتم بدعاء هذه النملة»، وفي رواية: «ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»[1]، وجاء عن الزهري مرسلًا أنَّ هذا النبي هو سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا أخرجه ابن عساكر في «تاريخه».

قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وهذا يدل على أنه ذا رِعايةٍ وعنايةٍ بجيشه -عليه السلام-، ومن حَزْمِهِ وحُسنِ نِظامِهِ تفقّد جُنده، ومن هؤلاء الجند: الطير، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ وَٱلطَّيْرِ﴾، كل هؤلاء من جنود سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-، كيف يغيب الهدهد دون أن يستأذن؛ ولذلك رتب عليه العقوبة، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي

---

١ أخرجه الطحاوي في "مشكل الاثار" (٧٣٢)، وضعفه الشيخ الألباني في "إرواء الغليل" (١٣٧/٣).

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، وهذا من عدله -صلوات الله وسلامه عليه-، وهو أنه إن كان له عذر؛ فإنه يعذر بهذا العذر الذي يقدمه.

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مَنْ الذي مكث غير بعيد؟ **يحتمل معنيين:**

المعنى الأول: أن الذي مكث غير بعيد هو سليمان -عليه السلام-، حتى جاءه الهدهد بالخبر.

المعنى الثاني: أن الذي مكث غير بعيد هو الهدهد، فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

وهذا يبين أن هذه الطيور تعلم علم اليقين أن الذي لا يغيب عنه شيء هو الله -سبحانه وتعالى-، وأمَّا غير الله -جل وعلا- من مخلوقاته فإنه لا يعلم الغيب، ولو كان نبيًا كريمًا كسليمان الذي ملك الأرض، ولم ينكر عليه نبي الله سليمان هذه المقالة؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لم يحطْ بكل شيء، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ سبأ مدينة معروفة في اليمن، وسليمان كان في بيت المقدس، هذا هو السبب الذي تغيب لأجله، فأراد -أولًا- أن يبين أنهم ليسوا أناسًا عاديين، وليست مملكة صغيرة حتى يظهر لنبي الله سليمان عظم الجرم، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، هدهد وأنكر عليهم غاية الإنكار أنهم عبدوا غير الله، فدل هذا على أن هذه الطيور وهذه الحيوانات مُوَحّدة لله -تبارك وتعالى-، بل ومسبحة لله -جل وعلا-: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وهذه الحيوانات تحبّ المؤمنين، وتبغض الكافرين المكذّبين للمُرسلين.

جاء هذا الهدهد بهذا الخبر، وهو يَحتَمِلُ الصِّدق والكذب، ولذلك لم يَقُلْ له: كذَبتَ، ولم يقل له: صدَقتَ؛ لأنه غيب بالنسبة لنبي الله سليمان، ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾، أصدقت فيما تقول، أم تكذب لتنجو من العذاب والذبح، ﴿ٱذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ * فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، لم يبين لنا ماذا كتب، ولكن سيتبين لنا عندما تقرأه ملكة سبأ، ذهب الهدهد بالكتاب، ألقاه إليهم، تعجبوا!! طير يأتي بكتاب!! أخذتِ الكتابَ الملكةُ، فقرأته ثم جمعت كبار القوم وهم الملأ، ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ

﴿إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، وقالت عن الكتاب: إنه كريم؛ لأنها تعرف أن سليمان كان من أكبر ملوك الأرض ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾، فكأن سليمان كان معروفاً عندهم ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دل على أنه يستحب للإنسان إذا قدم أو أراد أن يكتب كتابًا أن يقدم بين يديه هذه البسملة.

وذكر فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ عبارة مختصرة وجيزة كاملة البيان، وخير الكلام: ما قلّ ودلّ، ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، وهذا يدل على كمال عقلها ورجحانه، ماذا ترون، ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، إن شئت حربًا فنحن أولوا قوة، وأولوا بأس شديد، وإن شئت سِلْمًا، فالأمر إليك، فانظري ماذا تأمرين، قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ سبي، وقتل، وسجن، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أي: هذا هو دَيْدن الملوك وهذه عادتهم؛ لأنها لا تعرف إلا الملوك الذين من هذا الصنف، فأرادت أن تجرب هذا الملك، وما كانت تسمع عنه من عدله -صلوات الله وسلامه عليه-؛ ولذلك وصفتْ كتابه بأنه: ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، فدعوا الحرب، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، قال أهل العلم: أرادت بهذه الهدية أن تعرف أهو من ملوك الدنيا الذين يريدون جمع المال، والخدم، والحشم، وما شابه ذلك، أو أن الأمر غير ذلك؛ لأنه إنما قال لهم: ائتوني مسلمين، فهو دعاهم إلى الله -تبارك وتعالى-.

جاءت الرسل إلى سليمان بالهدية، فلما جاء سليمانَ -أي: الرسولُ الذي أرسلته ملكة سبأ- غضب سليمان، أنا ما طلبت هدايا، بل طلبتُ ألا تعلوا علي، وأن تأتوني مسلمين، ولذلك قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾، ولم يقل: ما عندي خير مما عندكم، وإنما قال ما أتاني الله خير مما آتاكم، فالذي عندكم من الله، والذي عندي من الله، والله أعطاني خيرًا مما أعطاكم، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، ارجع إليهم أي: بالهدية، وارجع بهديتهم، فأبلغهم ما كان من سليمان، وما قال، فعرفت ملكة سبأ أنه نبي، وأنه ليس ممن يريد الهدايا.

والتفتَ سليمان بعد أن أرجع الرسول بهديته، قال للذين حوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَيُّكُمْ

يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مَنْ يستطيع أن يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال أهل العلم: وسليمان إنما عرف أنهم سيأتونه مسلمين، لما رأى من رجحان عقلها أنها أرسلت الهدية، ولم تعلن حربًا عليه -صلوات الله وسلامه عليه-، وكذلك رأى من رجحان عقل هذا الرسول الذي جاءه، وسمع منه، فظن أنهم سيأتونه مسلمين، وهذا مما غلب على ظنه -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ إذ إنه قد بلغني أنهم سيخرجون وسيأتون مسلمين، أو أنهم خرجوا، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قالوا: العِفْرِيت هو شديد القوى، يقال له: عفريت، والجنُّ فيهم المسلمون، وفيهم الكافرون، وكلهم مُسَخَّرون لسليمان، مؤمنهم وكافرهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ وأما كفار الجن فقال فيهم: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾.

قال هذا العفريت -والأكثر على أنه كافر ولكنه خادم، رغمًا عنه-: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ أي: العرش ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قالوا: مقامه من بعد الشروق إلى الزوال، وقت الضحى، يجلس ويسمع من الناس مشاكلهم، ويقضي بينهم، وينظر في حاجاتهم، خلال هذه الساعات القصيرة القليلة، وهم في اليمن وأنت في الشام، ثم حتى لا يظن أحد أن هذا مجرد كلام قال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قالوا: هو أبعد ما يصل إليه النظر، إذا بلغه يكون العرش عنده، أو عندما يرمش، ولا شك أن هذا شيء عجيب، ولذلك ما قال: اذهب وائت به، وإنما رتب عليه الحصول: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ ولكن مَنْ هذا الذي قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟

لأهل العلم أربعة أقوال في هذا القائل:

القولُ الأوَّل: إن القائل رجل صالح من بني آدم.

القولُ الثَّاني: إن القائل هو جني مؤمن.

القولُ الثَّالث: إن القائل جبريل -عليه السلام- أو ملك من الملائكة آخر.

القولُ الرَّابع: إن القائل سليمان، وأراد أن يختبر قوتهم وقدرتهم، حتى يظهر لهم فضل الله عليه.

وكل هذه الأقوال محتملة، وليس هناك نص قاطع من عند الله -جل وعلا- أو من عند الرسول ﷺ يحسم هذه المسألة، ولا يهم، المهم أنه رآه مستقرًا عنده خلال لحظات -صلوات الله وسلامه عليه-.

سليمان عليه السلام يُري آية:

قال سليمان عليه السلام: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ نكّروا لها عرشها، زادوا ونقصوا، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ نظرت إليه وإذا هو عرشها، ثم توقفت لأن فيه تغييرات ولذلك أتت بعبارة محتملة، وهذا أيضًا دليل على فطنتها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، لم تقل ليس هو من شدة الشبه، ولم تقل هو للتغير الذي حدث فيه ثم للبعد؛ فالمسافة بعيدة هي في سبأ والآن جاءت إلى الشام.

سكت سليمان -عليه السلام- ثم قال لها: ادخلي الصرح ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾، الصرح: المجلس الكبير العظيم لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، من القائل؟ إما أن يكون القائل سليمان -عليه السلام-، وإما أن يكون القائل من وُكِّل بها لأن هؤلاء الملوك يوكل لهم من يقوم بشؤونهم، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ حسبته ماءً، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ ليس ماءً، ولكنه مُمَرَّدٌ بالقوارير، قِيل إنه جاء إلى البحيرة وعمل فوق البحيرة قوارير، يعني الأرضية شفافة، يُرى ما تحتها، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

سليمان عليه السلام والصافنات الجياد:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ يخبر الله -تبارك وتعالى-، عن قصة حدثت لنبي الله سليمان -عليه الصلاة والسلام-، قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ عرض على سليمان وهو الملك، والعشي من زوال الشمس إلى غروبها، يقال عن صلاة الظهر

وصلاة العصر: صلاتا العشي، ﴿ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الصافن من الجياد هي التي تقف على ثلاثةِ أرجل والرجل الرابعة تقف على طرف حافِرها، وقفة يُحِبُّها أهلُ الخَيل، وقفة فيها نوع من التكبُّر، فيُخبر الله -تبارك وتعالى- عن خيل سليمان أنها كانت صافنات جياد، فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ الخير اسم من أسماء الخيل، ولذلك قال النبي ﷺ: «في نواصيها الخير»[١] ولما جاء زيد الخيل للنبي ﷺ قال: «أنت زيد الخير»[٢]، وقيل لها: الخير؛ لأنها تأتي به، سماها بما تأتي به، فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

وذكر الحافظ ابن كثير وغيره من أهل العلم قالوا: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الخيل ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ الخيل ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الشمس ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ عرقبها وقتلها، وما الدليل على هذا القول؟ قالوا:

أولًا: قوله -جل وعلا-: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ﴾ ذِكْر العشي له معنى، والعشي هو وقت الزوال إلى الغروب، فلما ذكر العشي ثم توارت بالحجاب إذًا هي الشمس؛ لارتباط الشمس بالعشي، ثم كذلك قوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، «عن» على ظاهرها، والأصل أنها عن ذكر ربي وليس مِنْ ذكر ربي، فهي شغلته عن ذكر ربه -تبارك وتعالى-، قالوا: ويحتمل أنها صلاة العصر ويحتمل أنه ورد كان يصليه، وليس شرطًا أن يكون ترك واجبًا، لكن ممكن أن يكون ترك أمرًا مستحبًا، والأصل أن تؤخذ الآية على ظاهرها ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ولماذا قتلها إذًا؟ قالوا: قتلها، وأمر الناس أن يأكلوها، ولماذا فعل ذلك؟ قالوا لئلا تشغله مرة ثانية، ودليل ذلك أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه؛ ولذلك جاءت الآية التي بعدها أن الله عوضه بالريح، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ فلما ترك الخيل لله -جل وعلا- عوضه الله بالريح، والريح أقوى من الخيل وأسرع ولا تحتاج مؤونة ولا كلفة ولا عناية ولا شيء، فعوضه الله خيرًا من الخيل لما تركها لله -جل وعلا-.

فالقصد أن كلا الأمرين محتمل، يحتمل أنه أراد حتى توارت بالحجاب: الشمس، ويحتمل حتى توارت بالحجاب الخيل والعلم عند الله -جل وعلا-.

---

١ أخرجه البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١) من حديث عبدالله بن عمرو.

٢ أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (٤١٥)، وضعفه الشيخ الألباني.

الكلام على فتنة سليمان عليه السلام:

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وهذا على سنة الله -جل وعلا- كما قال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ إذًا الفتنة سنة جارية.

سليمان عليه السلام يريد الدنيا لتعينه على آخرته:

قال سليمان بعد ذلك -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ طلب ملكًا لا يكون لأحد من بعده.

وقد يسأل سائلٌ: كيف يطلب نبي الله الدنيا، والمعلوم أن أنبياء الله -عليهم السلام- أزهدُ الناس في الدنيا؟

فالجواب: أنه ما أراد الدنيا لأجل الدنيا، وإنما أراد الدنيا؛ ليتقرب بها إلى الله -تبارك وتعالى-، وهذا حق.

ولكن كما مر بنا في الحديث السابق أنه قال: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن مجاهدًا يقاتل في سبيل الله تبارك وتعالى»، إذًا إنما طلب مُلْكَ الدنيا -صلوات الله وسلامه عليه-؛ ليقيم الحق، ليقيم الدين، لينشر العدل، كما قال أخوه -عليه السلام-: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ فهذا جائز لا شبهة فيه.

واستجاب الله -تبارك وتعالى- دعاء نبيه سليمان، وما أنكر عليه هذا الدعاء؛ لأنه الله -سبحانه وتعالى-، عرف لماذا طلب سليمان الملك فقال -جل وعلا-: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، كانت الريح تتجه حيث أراد نبي الله سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- من بلاد الشام المباركة، قال قتادة: «تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر في يوم واحد»، تغدو: أي فترة الغدو في الفجر مسيرة شهر، تقضيها في هذه الفترة القصيرة، كذلك مسيرة شهر في الرواح وهو عودة الطيور

إلى أوكارها بعد غدوها كما قال النبي ﷺ: «تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[1].

وذكر الله -تبارك وتعالى- أنه مما أعطى سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وهي عين من نحاس أسالها الله له، وذُكر أنها كانت في اليمن، أسيلت له ثلاثة أيام، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، الجن خدم بين يدي سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-، على مختلف أشكالهم مؤمن الجن وكافر الجن، كلهم يعملون تحت يديه، إما أن يعمل باختياره وإما أن يُرغم على العمل وإما أن يسجن، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ الجفان هي: الصحون الكبيرة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كالحياض، والحياض هي أماكن شرب الإبل، ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ القدر الذي يعمل فيه الطعام، راسيات: أي ثابتات، قدور كبيرة ثابتة، وقال الله -جل وعلا- عن الجن بل عن شياطين الجن وهم الكفرة من الجن: ﴿وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بعض الجن من الشياطين بنَّاؤون يبنون لسليمان، وآخرون غواصون يغوصون في البحر يخرجون له درر البحر، قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ وهم الذين يعصون أمره يكبلهم ويقيدهم في الأصفاد.

ما اتهم به سليمان من الكفر:

ذكر أهل التفسير أن نبي الله سليمان كان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، وذكروا أنه كان يدفنه تحت كرسيه -صلوات الله وسلامه عليه-، وكانت الشياطين تعجز عن أن تصل إلى هذا السحر، فلما مات -صلوات الله وسلامه عليه- قالت الشياطين: إنَّ سليمان كان يسخِّر الريح والشياطين بالسحر الذي يدفنه تحت كرسيه، يعني: هو الذي كان يعمل السحر، وكان الناس على قولين، بين متهم لنبي الله سليمان وبين مبرء له، أيصدقون ما تقوله الشياطين عن نبي الله سليمان أنه فعلًا كان يستخدم السحر الذي وجدوه تحت كرسيه أو أنهم يكذبون عليه.

استمر هذا الاتهام لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، هل كفر -صلوات الله وسلامه عليه-

١ أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في "صحيح الجامع" (٥٢٥٤).

أم أنه بريء؟ استمر هذا الأمر حتى برأه الله -جل وعلا- على لسان محمد ﷺ حينما أنزل الله قوله -جل وعلا-: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ هذا الذي يسمى بالتولة، وقال النبي ﷺ: «التولة شرك»[1]، والتولة هو السحر الذي يصنع للزوجين إما لتقريب القلوب وإما لتفريقها، يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: في دينهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فبرَّأ الله عز وجل سليمان -عليه السلام- مما اتُّهِم به من السحر، فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ﴾ الذين اتهموه وكذبوا على الناس هم الذين كفروا؛ لأنهم هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر.

بصيرة سليمان عليه السلام في الحكم:

الحكم الأول: في قول الله - جل وعلا -: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قضية طرحت على نبي الله داود -عليه السلام- أن رجلين جاءا لنبي الله داود -عليه السلام-، فقال أحدهما له: إن غنم هذا دخلت إلى حقلي، وأفسدت زرعي، قال: ﴿نَفَشَتْ﴾ ولم يقل عاثت فسادًا، ولم يقل دخلت، وإنما قال: ﴿نَفَشَتْ﴾، هذا معناه أنها دخلت ليلًا، والإنسان مسؤول عن إبله وغنمه ودوابه ليلًا، وغير مسؤول عنها نهارًا، ففي النهار يجب على صاحب المزرعة أن يحمي مزرعته؛ لأن هذه دواب وبهائم يتركها صاحبها ترعى، وعلى صاحب الدواب أن يمنعها من الخروج ليلًا، فهذا تركها تخرج ليلًا، فأفسدت حقل صاحبه، فقال له نبي الله داود: ما تقول؟ قال: هو كما قال، فسأل نبي الله داود عن قيمة هذا الزرع، فذكر له مبلغ، ولنفرض أنه أربعون ألفًا، فنظر في الغنم كم قيمتها؟ فإذا قيمة الغنم كقيمة ما أفسدت، يعني كانت قيمتها أربعين ألفًا، فقال: خذ غنمه مكان ما أفسد من الزرع، هذا حكم داود -عليه السلام-، وهو صواب، فلما حكم داود -عليه السلام- سكت الرجلان وقَبِلا، وكان مَلِكًا قاضيًا.

---

١ أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وهو في "صحيح الجامع" (١٦٣٢).

وهنا تدخَّل سليمان، وقال: يا أبي تسمح لي أن أحكم؟ قال: نعم احكم، قال: يأخذ صاحب المزرعة غنم هذا الرجل فيستفيد منها في الفترة التي يقوم صاحب الغنم بإصلاح المزرعة كما كانت، يعني: صاحب الغنم يصلح المزرعة، وخلال فترة إصلاحه المزرعة حتى لا يتباطأ في إصلاحها ولا يتماهل يأخذ صاحب المزرعة الغنم فيستفيد من لبنها خلال هذه الفترة، ثم بعد ذلك يعيد له المزرعة كما كانت ويعيد له الغنم كما كانت، فيتحمل هذا ما أفسدت الغنم في العمل على إصلاح هذه المزرعة، ويستفيد صاحب المزرعة الفترة التي أفسدت فيه مزرعته يستفيد من لبن الأغنام، ففرح داود بهذا الحكم، فحكم داود صحيح وحكم سليمان أصح، لذلك قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: فهمنا سليمان الحكم الأصح في هذه المسألة، ثم حتى لا يعيب أحد على داود -عليه السلام- حكمه؛ قال -جل وعلا-: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

الحكم الثاني: أخبر النبي ﷺ أنهما كانتا امرأتان معهما ابناهما، هذه لها ابن وهذه لها ابن، فجاء الذئب فأكل أحدهما، فاختصمتا كل واحدة تقول: الذئب أكل ابن الأخرى، فاختصمتا عند داود -صلوات الله وسلامه عليه-، فصار يسألهما، سأل هذه وسأل هذه، ثم بعد ذلك تبين له من خلال ما سمع -صلوات الله وسلامه عليه- أن الابن الذي أخذه الذئب هو ابن الصغرى وقضى بالابن للكبرى، وكان سليمان حاضرًا فقال: يا أبي أحكم بينهما؟ قال: نعم احكم بينهما، وكان يرى فيه النجابة والعلم والفهم، فأمر بالسكين فأُوتي بها فقال: سأقطع الولد نصفين لأنه يحتمل أن الذئب أخذ ابن الكبرى، ويحتمل أنه أخذ ابن الصغرى، فإن أعطيناه الكبرى أو أعطيناه الصغرى ظلمنا الأخرى إذا كان خطأ، وليس هناك دليل قاطع يُحكَم من خلاله أهو للكبرى أو للصغرى، فقال: فقالت الكبيرة: نعم لا مانع اقطع، أما الصغرى فقالت: لا تفعل هو ابنها، فعرف سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- أن الابن للصغرى؛ وذلك أن شفقة الأم ظهرت، ولو كان ابن الكبرى لم تقل اقطعه[١].

١ أخرجه النسائي في "السنن" (٥٣٠٩).

وفاة سليمان عليه السلام:

قال الله -جل وعلا-: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ قدَّر الله -تبارك وتعالى- أنه مات وهو مستند على عصاه، ولا يعلم أحد أنه ميت، فاستمروا في العمل حتى جاءت دابة الأرض أي: الأرضة فصارت تأكل العصا من أسفل سقط نبي الله سليمان وعرفوا أنه كان قد مات، وهذا فيه أن الله أراد أن يبين للناس أن دعوى الجن أنهم يعلمون الغيب كذب وزور، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ إذ لو كانوا علموا أن سليمان قد مات كانوا خرجوا وتركوا العمل، كم المدة التي بقي فيها سليمان على كرسيه مستندًا على عصاه؟ لا تُعلم هذه المدة، المهم أنها فترة زمنية كان فيها سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- ميتًا، والجن تعمل تظنه حيًّا، هذا الذي يهمنا في هذا الأمر وهو أن الله فضحهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب.

الدروس والعبر المستفادة من قصة سليمان عليه السلام:

أولًا: كمال اعتناء الله بأنبيائه ورسله، من التربية والرعاية.

ثانيًا: ما مَنَّ الله به على سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- من كمال الدين، وكمال الخلق، والفطنة، والفهم.

ثالثًا: أن سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- قدم محبة الله على كل شيء، وهذا على القول بأنه قتل الصافنات الجياد، ذبحها تقربًا لله -جل وعلا-؛ لأنها ألهته عن طاعته.

رابعًا: أن كل ما شغل عن الطاعة فعلى الإنسان أن يفارقه، كما فعل نبي الله سليمان -صلوات الله وسلامه عليه-.

خامسًا: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، فلما ترك نبي الله سليمان الخيل عوضه الله الريح.

سادسًا: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان، وكل من ادعى أنه يسخر الشياطين وأنها تخدمه رغمًا عنها كذاب؛ لأن سليمان -صلوات الله وسلامه عليه- قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، فأي إنسان يأتيك ويدعي أنه تخدمه الشياطين؛ فاعلم أنه كذاب فهي إن خدمته فباختيارها لا بتسخيره لها، وإنما تخدمه لأنه يخدمها فيكون هناك تبادل منافع أو مضار؛ لأنها لا تخدمه إلا إذا كفر بالله -جل وعلا-، أما أن تسخر له الشياطين وأنها ترغم على خدمته فهذا باطل.

سابعًا: أن الله -تبارك وتعالى- أعطى سليمان مُلْكًا عظيمًا ومع ذلك ما غره ذلك المُلْك بل كان عبدًا تقيًّا لله -جل وعلا-.

ثامنًا: أن الإنسان لا يستعجل في الأمور ويستشير من معه كما فعلت ملكة سبأ لما استشارت قومها وقالت لهم: أشيروا عليّ.

قصة أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام

حديثنا في هذا المقام عن قُدوةِ الصَّابرين، نبيّ الله أيوب صلوات الله وسلامه عليه الذي صار مضرَب المثل في الصَّبر، حتى إذا بَلَغ الصَّبر بالإنسان مَبلغَه؛ قال: يا صبر أيوب، يعني اللهم أعطني صبر أيوب.

وأيوب عليه السلام من ذرية إبراهيم على الصحيح، وعلى المشهور هو من ذرية العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

قال الله -جل وعلا- عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾.

ورَدَ ذكره في القرآن أربع مرات، والصحيح المشهور أنه نبي، قال الله -جل وعلا-: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾ ولم يذكر الله تبارك وتعالى رسالته، ولا بُعث إلى مَنْ، ولا ذكر دعوته لقومه.

ابتلاء الله عز وجل لأيوب عليه السلام:

كان في أرض حوران في الشام، ويقترن اسمه بالصبر؛ لأنه كان أشدَّ الأنبياء بلاءً في جسدِه صلوات الله وسلامه عليه، ذُكِر عن أيوب أنَّه كان كثيرَ المال من جميع أصنافه، من أراضٍ، ومزارعٍ، وأنعامٍ، وذهبٍ، وفِضةٍ، وغيرها.

وله كذلك أولادٌ كُثُر، وأهلون كُثُر، فسَلَبه الله -جل وعلا- جميعَ ذلك، هذا هو **الأمر الأول**.

الأمر الثاني: أنَّه ابتُلي في جسده بأنواع البلاء، حتَّى قِيل: إنه لمْ يبقَ من جسده ممَّا لم يُصب إلا لسانه، وقلبه.

الأمر الثالث: طال بلاؤه جدًا.

الأمر الرابع: مَلَّ الناس زيارته لطول البلاء، وقيل: لخشية العدوى منه، فهجره جميع الناس، ما بقي معه إلا امرأته، وهذه لا شك مصائب يصيب الله بها العباد، ولكن هذه

المصائب في نظر العاقل المتدبِّر هي نِعمٌ لمن صبر واحتسب؛ لأنها أجر يقدمه الإنسان لنفسه يوم القيامة، وهي كالدواء المُرّ يشربه المريض، ولكن في النهاية عاقبته إلى خير.

صبر أيوب عليه السلام:

ومع هذا الابتلاء ظلَّ أيوب عليه السلام صابرًا محتسبًا للأجر عند الله تبارك وتعالى، ويكثر من ذكر الله -جل وعلا- ليله ونهاره، لم يفتُرْ لسانه ولا قلبه عن ذكر الله -جل وعلا-، وهو كما قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدِّدَ عليه في البلاء»[1]، إذًا الابتلاءات هذه لا تدل على أنَّ الله لا يُحب هذا الإنسان، بل لعلَّ العكس هو الصحيح، وذلك أنه جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُصب منه»[2]؛ أي: يبتليه سبحانه وتعالى، كالذَّهب يُعرَض على النار، فتنقي النار هذا الذهب من الشوائب حتى يصير بعد ذلك خالصًا من هذه الشوائب التي كانت عالقة فيه.

وظلَّت امرأة أيوب عليه السلام صابرةً محتسبةً معه، وقامت بحقِّ زوجها خيرَ قيام مع طول المدة، وشِدَّة البلاء إلا أنَّ أيوب عليه السلام لم يسأل ربَّه كشفَ ذلك الضرّ، وهذا جائز، فيجوز للإنسان أن يصبر ويحتسب الأجر، ويجوز له أن يدعو الله -جل وعلا- فيُذهب عنه ما يجد، وذُكر أنه قال: عشتُ سبعين سنة صحيحًا، فهل قليل علي أن أصبر سبعين سنة؟

أيوب عليه السلام يرفع يديه بالدعاء بعد صبر طويل:

ضَعُفَ حال امرأته، وقلَّ كسب يدها، وما كانت تجِدْ من يُنفِق عليها، كانت تعمل لتُطعِم نفسها وتأتي لتُطعِم أيوب صلوات الله وسلامه عليه، حتى ملَّها الناس، بل خافوا منها أن تعديهم لكثرة ترددها على هذا المريض أيوب صلوات الله وسلامه عليه، فلم تجد بُدًّا من

---

١ أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وهو في "صحيح الجامع" (٩٩٢).
٢ أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن تبيع شعرها، وقالوا: كان لها شعرٌ حسنٌ فباعتْ ضفيرتها لبعض نساء الأشراف في تلك البلاد، وأخذت المال واشترتْ به طعامًا لها ولزوجها.

جاءت أيوب ومعها طعام حَسن لا كما كانت تأتيه في كل يوم، فشك في أمرِها وحَلَف لا يأكل من هذا الطعام حتى تخبره من أين أتت به، فكشفت عن رأسها وأرَته أنها باعتْ ضَفيرتها، فلمَّا رآها؛ رفع رأسه إلى السماء، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دعا الله -جل وعلا-، قلنا: لم يصبر، لا أنه لم يصبر لشدَّة الألم، ولكن لِمَا رأى من حالِ زوجته، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: في أهلي، وفي هذا أنَّ الإنسان إذا ضاقتْ به الدنيا أنه لا ملجأ ولا منجا إلا إلى الله سبحانه وتعالى، فلجأ هذا العبد التقي إلى ربه سبحانه وتعالى، وكما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾، ولو طبَّقنا هذه الآية لوجدناها على أيوب مطابقة تمامًا.

وقيل: إنه سبب آخر، قام رجلان قريبان من أيوب، كانا يترددان عليه، فقال أحدهما: لو كان الله علم من أيوب خيرًا؛ ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع مثله، وخرَّ لله ساجدًا، وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه ما يجد، جاء في هذا حديث مرفوع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة.. فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان له ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: نعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه ربُّه فيكشف عنه، فلما دخلا على أيوب صلوات الله وسلامه عليه لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، قال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله -هذا يحلف وهذا يحلف- فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق»[1].

---

[1] أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/٢١١)، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٧).

قال النبي ﷺ: «وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها؛ أمسكتْ امرأته بيده، حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، وأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾» أي: اضرب برجلك الأرض، «فضرب برجله الأرض، فنبعت عين، قال: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر، وأقبل عليها، وقد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك؛ ما رأيت رجلًا أشبه به منك إذ كان صحيحًا، قال: فإني أنا هو، أنا نبي الله المبتلى».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «رفع هذا الحديث غريب جدًا».

والأشبه أن يكون موقوفًا، يعني من روايات بني إسرائيل، وليس من قول النبي ﷺ.

هل يعارض الدعاء الصبر؟

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وقال الله -جل وعلا-: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾.

هل هذا يتنافى مع قول الله -جل وعلا- في شأن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هل يتنافى هذا مع الصبر؟

والجواب: هو صابر مع ذكر هذه الآيات، لا تعارض أبدًا؛ لأنه لا تعارض بين الدعاء والصبر، والدعاء لا ينافي الصبر، والذي ينافي الصبر الشكوى إلى الخلق، أما الذي يشتكي إلى الله، فهذا هو الصابر المُحتسِب.

وأيوب لم يشتكِ إلى الخلق، بل لجأ إلى الله سبحانه وتعالى، وأيوب كان داعيًا، ولم يكن شاكيًا، بدليل أنه لما قال هذا الكلام؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، والاستجابة لا تكون إلا للدعاء، فهو دعا، ولم يشتكِ صلوات الله وسلامه عليه، بل إنه لما جمع في دعائه بين حقيقة التوحيد وإظهار الحاجة والفاقة إلى الله -جل وعلا-، بل والتوسل إليه بأسمائه وصفاته؛ استجاب الله سبحانه وتعالى له.

هل الشيطان يمس بالشر؟

وهنا قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فهل الشيطان يمس بالشر أم أن الأمر كله بيد الله -جل وعلا-؟

والجواب: إن الأمر كله بيد الله -جل وعلا-، خلق الخير وخلق الشر، بل رأس الشر الشيطان، والذي خلقه هو الله سبحانه وتعالى، هو النافع الضار سبحانه وتعالى، ولكن هذا الكلام من أيوب صلوات الله وسلامه عليه جاء من باب الأدب مع الله -جل وعلا- كما جاء في دعاء النبي ﷺ: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك»[1]؛ أي: لا يُنسب إليه سبحانه وتعالى.

قال الله -جل وعلا- عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، ولم يقل: وإذا أمرضني مع أن الذي أمرضه هو الله، والذي شفاه هو الله، ولكنه أدبًا مع الله -جل وعلا- قال: ﴿مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

استجابة الله عز وجل لأيوب عليه السلام:

كان يخرج لحاجته مع امرأته وأنه في يوم من الأيام أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب برجلك، ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ الذي نبع من الأرض هو مغتسل بارد، وهو أيضًا شراب، نبعتْ من الأرض عين، فلما اغتسل منها برأ ظاهره، ولما شرب منها برأ باطنه، فهما عينان، عين اغتسل منها وعين شرب منها صلوات الله وسلامه عليه.

بعد أن شافاه الله -جل وعلا- قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ **في معناها ثلاثة أقوال:**

القول الأول: رد الله عليه ماله وولده الذين ماتوا، أحياهم الله له مرة ثانية، ثم كثرهم.

---

١ أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

القول الثاني: رد لزوجته شبابها.

القول الثالث: آجره الله فيمن بقي من أهله، وجمع بينه وبينهم في الآخرة.

قال الله -جل وعلا-: ﴿مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾، فالعابدون هم أولو الألباب؛ أي: تذكرة لمن ابتُلِي فصَبَرْ؛ فإنَّ له مثل ما لأيوب عليه السلام.

واحفظوا أيمانكم:

قال الله له بعد أن شفاه ورد عليه أهله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ذُكِر أن أيوب حَلَف ليضربنّ امرأته مئة سوط؛ لأنها باعتْ ضفائرها، أو أنها تأخرتْ عليه يومًا، أو جاءها الشيطان، فقال لها: إن شفيتُ لك أيوب هل تقولين إني أنا شفيته؟ فقالت: أسأل أيوب، فسألته، فحلف ليضربنها، يعني كيف تقبلين مثل هذا الكلام، والشافي هو الله -جل وعلا-، وأيًا كان فالله أعلم بالسبب الذي من أجله حلف أيوب صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه كلها روايات بني إسرائيل، فلا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولكن الذي جاء في كتاب الله -جل وعلا- قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾، الضغث قيل: هي أعواد النخيل يعني الجريد أو السعف الجاف.

وقيل: الضغث هو الحشيش الذي يَبُس، جمع مئة عود، فضرب بها زوجته ضربة واحدة، بدل أن يضربها مئة سوط، حتى لا يحنث في يمينه، وهو كما قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

الدروس والعبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام:

أولًا: قصة أيوب هي قصة الإيمان الكامل، والصبر الجميل.

ثانيًا: كفارة اليمين لم تُشرع لمن قبلنا، على الأقل لأيوب، فإن الإنسان إذا حلف يمينًا؛ فإنه يُكفّر عنها إذا لم يستطع أن يوفيها أو كانت يمين على غير خير، ووجد غيرها خيرًا منها، يقول النبي ﷺ: «ما حلفتُ على شيء ووجدت غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»[1]، ولو كان هذا مشروعًا في زمنهم لكفَّر أيوب عن يمينه، ولكن لم يجد بُدًا من تنفيذ ما حلف عليه، ولذلك ضرب زوجته بهذا الضغث.

ثالثًا: من لا يحتمل إقامة الحَدّ عليه لضَعْفِه؛ فإنه يُقام عليه مُسمًّى ذلك، يعني أيوب لما رأى أن هذا الضرب لا تستحقه هذه المرأة جعل الله له مخرجًا بهذه الأعواد.

رابعًا: المرء يبتلى على قدر دينه.

خامسًا: من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فهذه المرأة لما اتقت الله -جل وعلا-: جعل الله لها مخرجًا، بأن جمع لها أيوب هذه الأعواد وضربها بها ضربة واحدة حتى لا يحنث في يمينه، وجعل الله لأيوب أيضًا مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

سادسًا: الدعاء لا ينافي الصبر؛ لأنَّ الله مدحه بالدعاء، ومدحه كذلك بالصبر.

سابعًا: ما بين غمضة عين والتفاتتها يغير الله من حال إلى حال، ذهب معها مريضًا، أبطأت عليه، ورجعت وإذا هو معافى ليس به بأس، ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، فكان كأن شيئًا لم يكن.

ثامنًا: جواز الاستكثار من الحلال، لما قال أيوب: «لا غنى لي عن بركتك».

---

[1] أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

قصة إسماعيل عليه السلام

إسماعيل عليه السلام

إسماعيل عليه السلام، ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَابِ إِسۡمَاعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا﴾.

المشهور أنه أرسل إلى العرب، ولذلك جاء في الأخبار أن العرب الذين كانوا يطوفون حول الكعبة، وقد خلطوا الحج بشركيات، فوضعوا عند المروة صنمًا وعند الصفا صنمًا، ووضعوا داخل الكعبة أصنامًا وفوقها وحولها وكانوا يطوفون بالبيت، يغنون، يصفقون ويصفرون، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ لكن أصل الحج موجود عندهم، إذًا هم على دين إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر النبي ﷺ أن أول من أتى بالأصنام إلى مكة هو عمرو بن لحي الخزاعي لما كانت خزاعة تحكم مكة قبل قريش، جاء بها عمرو بن لحي من جدة، ثم عبدتها العرب بعد ذلك ومما يدل على أنهم على دين إسماعيل أمور، منها:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ كان حنيفًا، كان يعبد الله تبارك وتعالى في غار حراء كما هو مشهور على ملة إبراهيم، لكنه لا يعرف تفاصيل الشرع لكن يعرف أن هناك ربًّا سبحانه وتعالى وأنه يجب أن يُعْبَد وأن هذه الأصنام لا يجوز أن تُعْبَد، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: ضالًا عن تفاصيل الشرع، لا أنه كان مشركًا.

الأمر الثاني: وأخبر النبي ﷺ الرجل الذي جاءه وقال له: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «أبوك في النار»، فولَّى الرجل وهو متضايق، فناداه النبي ﷺ، قال: «أبي وأبوك في النار»[١].

فالشاهد أن أهل مكة كانوا مطالبين بدين إسماعيل، وبمِلَّة إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، ولكنهم كفروا بها، ومن بقي منهم على دين إسماعيل ووصل ذلك لنا زيد بن عمرو بن نفيل مثلًا، ومحمد ﷺ، كانا على دين إسماعيل كانا موحّدين.

١ أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

محمد ﷺ من ذرية إسماعيل عليه السلام:

وإسماعيل لم يكن من ذريته من الأنبياء إلا واحد وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيدهم، ويثبت أن محمدًا من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه: إخباره هو صلوات الله وسلامه عليه أنه من ولد إسماعيل، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى قريشًا على العرب واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[1]، فهو خيار من خيار من خيار صلوات الله وسلامه عليه، وسمى الله تبارك وتعالى إبراهيم أبًا له فقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهذا باتفاق أن النبي ﷺ من ذرية إسماعيل.

١ أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

قصة إدريس عليه السلام

إدريس عليه السلام

إدريس نبيٌّ كريم عليه الصلاة والسلام، وقد ورد اسمُه مرتين في القرآن.

ذكر إدريس في سورة الأنبياء:

الأولى: في سورة الأنبياء، مُقتَرِنًا بإسماعيل وذي الكفل.

قال تعالى: ﴿وَإِسماعيلَ وَإِدريسَ وَذَا الكِفلِ كُلٌّ مِنَ الصّابِرينَ * وَأَدخَلناهُم في رَحمَتِنا إِنَّهُم مِنَ الصّالِحينَ﴾.

ووصفهم بأنّهم صالحون، ومعلومٌ أن الأنبياء أصْلَحُ النَّاس: ﴿إِنَّهُم مِنَ الصّالِحينَ﴾.

ويمكن أن نستخْرِجَ من هَاتينِ الآيتين ما فيهما من ثنَاء على إدريس عليهِ السلام لحُسْنِ صفاته، فنقول كان إدريس عليه السلام صابرًا، صالحًا، ومرحومًا أدخلهُ الله في رحمته.

ذكر إدريس في سورة مريم:

الثانية: في سورة مريم، بعدَ قصةِ عيسى وإبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿وَاذكُر فِي الكِتابِ إِدريسَ إِنَّهُ كانَ صِدّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعناهُ مَكانًا عَلِيًّا﴾.

والأمر هنا صريح لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر إدريس عليه السلام:

﴿وَاذكُر فِي الكِتابِ إِدريسَ﴾ وهذا الأمر ينسحبُ على كلِّ مسلمٍ ذاكر متذكر من بعده كما قلنا.

وذكر هؤلاءِ الأنبياءِ الخمسة في سورة مريم لتقرير حقيقة نبّوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولإقامة الحُجَّةِ على الطَّوائف الموجودة زمَن النبي عليه الصلاة والسلام، وهم اليهود والنصارى والعرب والمشركون.

إدريس صِدّيقٌ نبّي:

وقد وصفتِ الآيةُ إدريس عليه السلام بوصفين: ﴿إِنَّهُ كانَ صِدّيقًا نَبِيًّا﴾ وهما الوصفان اللذان وُصِفَ بهما إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذكُر فِي الكِتابِ إبراهيمَ إِنَّهُ كانَ صِدّيقًا نَبِيًّا﴾ فإبراهيم صدّيقٌ نبي، وإدريس صدّيقٌ نبّي عليهما الصلاة والسلام، ومقامُ "الصدّيقيّة" مقامٌ عظيم للمقرَّبين عندَ الله.

وصفَ الله بهِ نبيَّينِهِ الكريمَين إبراهيم وإدريس عليهما السلام، وهذا مقام قد يصل إليه السابقون من المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ آمَنوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدّيقونَ﴾.

والصِّدّيق: مبالغة من الصدق والتصديق.

فالصِّدِّيق: صادق أولًا في قولهِ وفعلهِ، ثُمَّ هو صَديق لكل صادق بينهما صداقة ومودة، ثم هو صِدِّيق، دائمُ الصداقةِ والتصديق، وكلّ نبيٍّ صِدّيق، لأنه صادق وصَدِيق وصِدِّيق.

رَفْعُ إدريس إلى السماء الرابعة:

بعدما أثنى الله على إدريس بأنه صِدِّيقٌ نبيّ، أخبرنا بأنه رفعهُ عنده إلى مكانٍ عليّ: ﴿وَرَفَعناهُ مَكانًا عَلِيًّا﴾.

والمكان العليّ هو عالي القدر والمنزلة، وكلّ الأنبياء مكرمونَ عند الله، وكلهم رفعهم الله إلى مقام ومكان عليّ عنده سبحانه، ومقام النّبوة هو أعلى مقام ومنزلة عنده.

وقد رفع الله إدريس عليه السلام إلى السماء، بدليل إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رؤيته له في السماء الرابعة، ليلةَ المعراج.

روى البخاريُّ ومسلم عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم حدَّث،أنه لما عُرِجَ به إلى السماء قال: "أتيتُ على إدريس في السماءِ الرابعة"[١].

---

١ أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢).

خلاف في زمن نبوّة إدريس عليه السلام:

وقد اختلف المفسرون في زمان بعثة إدريس عليه السلام.

فذهب جمهور العلماء إلى أنَّه كان بعد آدم، وقبل نوح.

فهو عندهم النبيّ الثاني من حيث الوجود التاريخي، وعندما يَعُدّون الأنبياء يعُدّونهم هكذا: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح .... وهكذا.

وذهب آخرون من العلماء المحقِّقين إلى أنّ إدريس عليه السلام متأخرٌ في الزمان، وأنه من أنبياء بني إسرائيل، وقد يكون بعد داود وسليمان عليهما السلام.

قصة ذو الكفل عليه السلام

ذو الكفل عليه السلام

ذو الكفل نبيٌّ كريم، عليه الصلاة والسلام، ورَد اسمه ضمن أنبياء آخرين، كان ذكرُه مرتين فقط.

الأولى: في سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿وَإسماعيلَ وَإدريسَ وَذَا الكِفلِ كُلٌّ مِنَ الصّابِرينَ * وَأَدخَلناهُم في رَحمَتِنا إِنَّهُم مِنَ الصّالِحينَ﴾.

وهذا ثناء على ذي الكفل، وشهادة من الله له بأنه صابر، مرحوم، صالح كباقي إخوته من الأنبياء.

الثانية: في سورة ص قال تعالى: ﴿وَاذكُر عِبادَنا إبراهيمَ وَإِسحاقَ وَيَعقوبَ أُولِي الأَيدي وَالأَبصارِ * إِنّا أَخلَصناهُم بِخالِصَةٍ ذِكرَى الدّارِ * وَإِنَّهُم عِندَنا لَمِنَ المُصطَفَينَ الأَخيارِ * وَاذكُر إِسماعيلَ وَاليَسَعَ وَذَا الكِفلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخيارِ﴾.

قَرَنت الآيات ذا الكفل مع إسماعيل واليسع، وقدّمتهما عليه، وذَكرت قبلهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وتقديم إسماعيل واليسع على ذي الكفل، قد يدل على أنه بعدهما في الزمان، والله أعلم.

وهذا ما أَورده القرآن عن ذي الكفل عليه السلام، حيث لم يذكر عن قصته أيَّ شيء واكتفي بإيراد اسمه ضمن أنبياء آخرين.

قصة يونس عليه السلام

يونس عليه السلام

هو يونس بن مَتَّى كما جاء في الحديث عن النبي محمد ﷺ[1]، وقال بعضهم: إن «مَتَّى» اسم أمه، وأكثر أهل العلم على أن مَتَّى اسم أبيه، وهذا هو الصحيح، فهو يونس بن مَتَّى نسبة إلى أبيه لا نسبة إلى أمه.

نسب يونس عليه السلام:

ويونس صلوات الله وسلامه عليه مِنْ نسل يعقوب صلوات الله وسلامه عليه فهو مِنْ أنبياء بني إسرائيل، وقيل: إنه من أولاد بنيامين بن يعقوب أخي يوسف من أمه وأبيه.

ذكر يونس عليه السلام:

ذكره الله -تبارك وتعالى- في كتابه العزيز باسمه أربع مرات، وذكره مرتين بوصفه بنسبته إلى الحوت كما قال جل وعلا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ فنسبه إلى النون، وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ فنسبه إلى الحوت، والحوت هو: النون.

دعوة يونس عليه السلام لقومه وغضبه عليهم:

يونس صلوات الله وسلامه عليه كغيره من إخوانه الأنبياء الذين أرسلهم الله -تبارك وتعالى- يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، وألا يشركوا به شيئًا فكان أن واجه قومه كما واجه سائر الأقوام أنبياء الله -جل وعلا-، فكفروا به، وكذّبوه، وامتنعوا عن متابعته صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر أهل العلم أن يونس عليه السلام أُرسل إلى قرية في الموصل يقال لها: نينوى في العراق، واستمر في دعوته ما شاء الله له، ثم بعد ذلك خرج مغاضبًا وذلك لما استعصى عليه

[1] أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣).

قومه وامتنعوا عن متابعته صلوات الله وسلامه عليه، فخرج من بين أظهرهم، وتوعدهم بعذاب ينزل عليهم من الله عز وجل حالهم في ذلك حال سائر الأقوام الذين كذبوا أنبياء الله جل وعلا.

توبة قوم يونس عليه السلام بعد انصرافه عنهم:

لما خرج صلوات الله وسلامه عليه مِنْ بين أظهرهم قذف الله -جل وعلا- في قلوبهم التوبة والإنابة والخوف، وذلك لما شاهدوا مقدمات هذا العذاب الذي توعدهم به يونس صلوات الله وسلامه عليه، وعند ذلك تابوا إلى الله -جل وعلا- وأنابوا ولجؤوا إليه، وخرج النساء والرجال يبكون خوفًا من الله سبحانه وتعالى أن يُلْحق بهم العذاب، فلما رأى الله -جل وعلا- منهم ذلك كشف عنهم العذاب، ولم يعذبهم، وذلك رحمة منه، قال جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ قال أكثر أهل العلم: إنها استثناء منقطع أي: لكن قوم يونس مع أنهم رأوا العذاب، ومع هذا كشف الله عنهم العذاب لما تابوا إليه، وقيل: إنها بمعنى «غير»، فيكون متصلًا، وهم مستثنون مِنْ عامة الناس.

عدد قوم يونس عليه السلام:

أرسله الله سبحانه وتعالى إلى مئة ألف، قال جل وعلا: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ يزيدون كم؟ قيل: يزيدون بعشرين ألفًا أو ثلاثين أو أربعين.

القول الثاني: هو أن «أو» هنا للإضراب، بمعنى «بل» أي: وأرسلناه إلى مئة ألف بل يزيدون، أي: يزيدون عن المئة ألف وهذا ظاهر واضح.

التقام الحوت هل كان قبل النبوة أم بعدها؟

واختلف أهل العلم في يونس صلوات الله عليه هل التقمه الحوت قبل أن يرسله الله إلى قومه أم أرسله قبل ذلك ثم ذهب مغاضبًا فابتلعه الحوت؟ يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ

لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾، وهذه الآيات العشر هي خلاصة قصة يونس صلوات الله وسلامه عليه.

يخبر الله جل وعلا أن يونس عليه السلام كان من المرسلين: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وذلك لما دعا قومه إلى عبادة الله تبارك وتعالى وأبوا عليه غضب لله جل وعلا، غضب عليهم لأنهم لم يؤمنوا، ولكن قبل أن يأذن الله له، كما هو الحال في قصة لوط عليه السلام لما أمره الله عز وجل أن يخرج، وقصة نوح عليه السلام عندما أمره الله أن يركب السفينة وغيرهما من الأنبياء، فالله جل وعلا يأمرهم بالخروج لأنه سيُنزل على قومهم العذاب، ويونس عليه السلام هنا خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج، فركب سفينة في البحر وكادوا يغرقون، عند ذلك دار الأمر إما أن يبقوا جميعًا في السفينة ثم تنكفى ويغرقون جميعًا، وإما أن يُلقوا بعضهم في البحر فتخف السفينة فتبقى ولا يغرق أحد، وقيل: إنهم أُلقي في روعهم أن فيكم من عصى الله جل وعلا فألقوه حتى تنجو مِنْ هذا العذاب، وعند ذلك لم يروا بُدًا من القرعة، وذلك أن هذا هو الاختيار الثاني أن يلقوا بعضهم بدلًا مِنْ أن يلقى الجميع حتفه، فعملوا قرعةً فوقعت القرعةُ على يونس صلوات الله وسلامه عليه كما قال الله جلّ وعلا: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: مع من ساهم ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المغلوبين في هذه القرعة، كل واحد يضع سهمه ثم يخرج سهم الذي سَيُلقي بنفسه.

وذكر بعض أهل العلم أنه لما وقعت القرعة على يونس صلوات الله وسلامه عليه وكانوا يعرفون له قدره، وقيل أنه كان غريبًا عنهم، فاستحيوا منه فقالوا: نعيد القرعة، فأعادوا القرعة مرة ثانية فوقعت عليه، وعند ذلك قال لهم: هذا أمر الله عز وجل فألقى نفسه في البحر صلوات الله وسلامه عليه لأمر يريده الله جل وعلا، ولما ألقى يونس عليه السلام نفسه في البحر التقمه الحوت مباشرة أمام أعين الناس قال الله جل وعلا: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ابتلعه الحوت وأمره الله جل وعلا.

يونس عليه السلام في بطن الحوت:

ولما استقر في بطن الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فإذا هي تتحرك، فخرّ لله ساجدًا وقال: رب اتخذت لك مسجدًا لم يعبدك أحدٌ في مثله.

مدة بقائه عليه السلام في بطن الحوت:

كم لبث يونس في بطن الحوت؟ هذا غير معلوم وإنما الذي ذكره الله جل وعلا فيه العبرة هو أنه التقمه الحوت وهو مليم، وهو أنه لبث في بطنه فترة ثم خرج صلوات الله وسلامه عليه كما قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إذًا لبث وقتًا معينًا وهو غير معلوم، وكل من ادعى وقتًا فلا دليل عنده، ولكن المشهور عند أهل العلم أنه التقمه الحوت ضحى وألقاه عشيًا يعني: فترة قصيرة في يوم واحد، وقيل: التقمه الحوت ثلاثة أيام، وهذان أشهر قولين في هذه المسألة، والعلم عند الله جل وعلا، وهذه مِنْ أخبار بني إسرائيل وأخبارهم كما مر بنا كثيرًا لا نقبلها ولا نرفضها، ونقول: علمها عند ربي جل وعلا.

معنى قوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ):

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ ذو النون: صاحب النون، والنون هو الحوت إذًا هو يونس صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أي: ذهب مغاضبًا قومه ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ **تحتمل ثلاثة معانٍ:**

الأول: ظن ألن نستطيع أن نهلكه، وهذا باطل بالإجماع لأن هذا لا يليق بآحاد المسلمين بل لا يكون مسلمًا مَنْ ظن أن الله لا يقدر على ذلك، فكيف يمكن أن نظن هذا في نبي من الأنبياء أنه دار في خُلده أن الله عز وجل لا يقدر؟!

الثاني: ألا نضيق عليه كما قال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾

أي: يبسط لبعض الناس ويُضيق على آخرين، وهذا ممكن، أي: ظن يونس عليه السلام أنه لن نُضيق عليه؛ لأنه فعل ما بوسعه أن يفعله، فقد أدى رسالته وهم كفروا به فتوعدهم بالعذاب وخرج وما ظن أن الله سيضيق عليه، وظن أن الله عز وجل سيرسله إلى قوم آخرين يؤمنون به ويتبعونه ويعبدون الله جل وعلا، وهذا معنى مقبول.

الثالث: ألن نقضي عليه، مِن القضاء والقدر، ومنها قوله جل وعلا: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: حُكم وقُضي فيه، وهذا المعنى أيضًا مقبول.

نداء يونس عليه السلام في بطن الحوت:

يقول الله جل وعلا: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾ نص أهل العلم أنها **ثلاث ظلمات:**

١- ظلمة بطن الحوت.

٢- وظلمة البحر فالحوت في البحر.

٣- وظلمة الليل وهذا يقوي أن يونس عليه السلام مكث في بطن الحوت إلى الليل.

فاجتمعت هذه الظلمات على يونس صلوات الله وسلامه عليه في مكان واحد كما قال يونس عليه السلام: اتخذت لك مسجدًا في مكان لم يتخذه أحد قبلي، بُعْدٌ تام عن الرياء والسمعة في بطن الحوت في لجة البحر وفي الليل الذي لا يراه أحد ثم نادى يونس صلوات الله وسلامه عليه ربه قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، والإباق هو خروج العبد عن طاعة سيده، عبدٌ آبق: إذا خرج عن طاعة سيده وهرب وتركه وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ثلاثة لا يقبل الله لهم صرفًا ولا عدلًا» منهم: «عبد آبق من سيده»[١] وسماه الله عبدًا آبقًا هنا لأنه خرج دون أن يأذن الله له سبحانه وتعالى، ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مستحق للملامة مِنْ الله جل وعلا والعتاب لأنه لم يصبر الصبر الذي كان يجب عليه أن يصبره، ولذلك قال الله جل وعلا لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: لا تفعل فعلة صاحب الحوت، حيث إنه لم يصبر الصبر اللائق بالأنبياء عليهم السلام.

١ بنحوه أخرجه الترمذي (٣٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في "صحيح الترغيب" (٤٨٧)، وأخرج مسلم (٧٠): "إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة".

فضل التسبيح:

قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال أهل العلم: أي: لولا أنه قال تلك الكلمة الطيبة: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ وقبل أن يدخل بطن الحوت ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾، في ماضيه ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ولذلك قال أهل العلم: اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة سبحانه وتعالى، فإن يونس كان من الذاكرين الله كثيرًا والحافظين لحدود الله جل وعلا فكان مسبحًا ذاكرًا لله قبل أن يدخل بطن الحوت ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، فماذا فعل الله به؟ نجى الله عز وجل يونس عليه السلام ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ ومع أن دعوة يونس -صلوات الله وسلامه عليه- ذكر سماها الله دعاءً لأنها متضمنة للدعاء، ولذلك قال النبي ﷺ لما سأله الصحابة عن شيء يدعون به ربهم جل وعلا في عرفة قال: «خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[1] ولم يذكر دعاءً وإنما ذِكْرٌ متضمن للدعاء كدعوة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكما قال أيوب صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾ فإنه ذكر فيه تضرع لله جل وعلا يتضمن كذلك الدعاء لله جل وعلا.

يونس عليه السلام يخرج من بطن الحوت:

قال يونس عليه السلام هذه الكلمات وهو في بطن الحوت، وعندها قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ألقيناه في مكان مقفرٍ ليس فيه أحد ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض قد نَحَل جسمه وضعف بعدما كان في بطن الحوت، وهذا يؤيد قول من قال أنه جلس أيامًا في بطن الحوت والعلم عند الله جل وعلا، المهم أنه ألقاه الحوت وهو سقيم ضعيف الجسم صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾، قال المُبَرِّد

---

[1] أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٥٠٣)

والزجاج: كل شجر لا يقوم على ساق، وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين قال: ومنه الدُباء والقرع والبطيخ والحنظل وجميع هذه النباتات تمشى في الأرض كلها تُسمى يقطينًا وسُميت يقطينًا لأنها تقطن الأرض أي: اتخذت الأرض مكانًا لها، فلا ترتفع، ويقال: فلان قطن هذا المكان أي: استقر فيه والتزمه.

يونس عليه السلام يرجع إلى قومه:

لما ألقاه الحوت أمره الله جل وعلا أن يرجع إلى قومه، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ * وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ أي: كان الإرسال بعد أن ألقاه الحوت، وقيل: وهو المشهور عند أهل العلم أنه أرسله الله مرة ثانية إلى قومه بعد أن تابوا وتضرعوا إلى الله جل وعلا ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ * فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ وجاء في آية أخرى قول الله جل وعلا: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ يعني: هل سيعذبون في الآخرة؟ هذا أمر وارد ولكن يقطع على هذا قول الله جل وعلا: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ وطالما أنهم آمنوا فهم ناجون يوم القيامة، وهذا هو الصحيح أن قوم يونس عليه السلام آمنوا فنجاهم الله من عذاب الدنيا ونجاهم كذلك مِنْ عذاب الآخرة.

لا يجوز لأحد أن يتهم يونس عليه السلام بالتقصير:

عندما يقرأ الإنسان المسلم هذه الآيات في يونس عليه السلام: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ فشبهه بالعبد الهارب مِنْ سيده، وقال جل وعلا: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ أي: ملام على ما فعله وهو تركه قومه قبل أن يأمره الله جل وعلا، وقول الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ فقد يلقي الشيطان في روع الناس أن يونس عليه السلام قصر في دعوته، وهذا من الباطل، فليس لأحد أن يتنقص نبي الله يونس لمثل هذه الأمور، ولذلك نبه النبي ﷺ على هذا فقال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن مَتَّى»[١]؛ أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس؛ لأنه نبي كريم صلوات الله وسلامه عليه.

١ أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس، وهو أيضا في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدروس والعبر المستفادة من قصة يونس عليه السلام:

أولًا: إن عتاب الله تبارك وتعالى ليونس صلوات الله وسلامه عليه كان عتابًا لطيفًا، ومنه أن الله جل وعلا جعله في بطن الحوت، وأمره ألا يكسر له عظمًا وألا يأكل له لحمًا، ثم أخرجه من بطن الحوت، وفيه آية عظيمة تدل على كرامته عند الله جل وعلا ولذلك آمن به قومه عليه السلام.

ثانيًا: إن العبد إذا تعرف على الله عز وجل في الرخاء عرفه الله في الشدة.

ثالثًا: فضل دعوة يونس ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

رابعًا: الإيمان ينجي العبد من المهالك.

خامسًا: جواز القرعة وهذا في شريعة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك في شريعة النبي محمد ﷺ، فقد كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه[1].

---

١ أخرجه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

قصة زكريا ويحيى
عليهما السلام

زكريا ويحيى عليهما السلام

العلاقة بين أسرة عمران وأسرة زكريا عليه السلام:

أسرتان كريمتان ذكرهما الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، كانت لهما صلة ببعضهما وهما أسرة عمران، وأسرة زكريا عليه السلام، فزكريا نبي كريم من أنبياء بني إسرائيل رزقه الله تبارك وتعالى ولدًا نبيًا وهو يحيى صلوات الله وسلامه عليه، وصاهر زكريا أسرة عمران فتزوج أخت مريم وقيل: تزوج خالتها، ومن مريم ولد رسول الله عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

فسيكون حديثنا أولًا عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام. ثم يكون الحديث عن مريم وابنها عيسى عليه السلام وسنجد أن هناك أمورًا مشتركة بين عيسى ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

زكريا عليه السلام يسأل الله الذرية:

ذكر زكريا سبع مرات وذكر يحيى خمس مرات، قال الله تبارك وتعالى في ذكر زكريا وابنه يحيى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي: اذكر يا محمد رحمة ربك الظاهرة في عبده زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ نادى زكريا ربه نداءً خفيًا، والنداء الخفي أقرب إلى الإخلاص وأقرب مِنْ ثَمَّ إلى الإجابة، قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ يُكَنِّي عن كبر سنه ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، قال: اشتعل، ولم يقل شاب رأسي وإنما قال: اشتعل لسرعة الشيب إليه ثم قال: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني ما عودتني يا رب أن أكون شقيًا بدعائك بل عودتني إذا دعوتك استجبت لي، ثم قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ والموالي: هم الكبار في بني إسرائيل، فخاف من بني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء[1]، وزكريا نبي واشتعل الرأس شيبًا ووهن العظم منه

١ أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

وخاف الموت وخاف من الموالي، وذلك أنه ما كان يثق بهم، فخشي أنهم يفسدون على بني إسرائيل دينهم، فسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقه ولدًا نبيًا فيرث منه النبوة ويستمر الصلاح والخير في بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: والحال أن امرأتي عاقرٌ، فهو سبب مانع للحمل والولادة، وهو غير ممكن في الغالب، لا لأن الله لا يقدر؛ فهو أعلم الناس بالله جل وعلا، بل لأن العادة لا تقتضي أن يولد لمثل هذا الرجل، فقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا وامرأته عاقر وهو يريد خرق العادة.

ولماذا سأل خرق العادة؟ قالوا: لأنه رأى الله تبارك وتعالى خرق العادة لمريم حيث كان مسؤولًا عنها كما سيأتي، يقول الله جل وعلا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء وهو المسؤول عن إطعامها، فمن الذي يأتيها بهذا الطعام؟ ﴿قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فهنا تنبه زكريا عليه السلام أن أمر الله كن فيكون، فقام من الليل يصلي لله جل وعلا ثم رفع يديه إلى السماء وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سأل الله على الحالة التي هو عليها وحال زوجته؛ لأنه رأى الكرامة التي أعطاها الله لمريم ولا يمنع أبدًا أن يعطيه تبارك وتعالى كرامة مثلها فهو نبي كريم.

ميراث زكريا عليه السلام:

قال زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: أريد غلامًا يرثني، وليس الميراث هنا ميراث المال، وإنما ميراث النبوة بدلالة قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ﴾، ولماذا نقول: إنه لا يطلب ميراث مال؟

أولًا: أن النبي ﷺ قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»[1] وزكريا من الأنبياء فهو لا يورث أيضًا، ولو ترك مالًا لا يرثه أولاده وهذه قضية محسومة عند زكريا صلوات الله وسلامه عليه، فكيف يطلب ولدًا يرث ماله وهو يعلم أنه لا يورث أصلًا؟

---

١ أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٨، ١٧٥٩).

ثانيًا: إن زكريا كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم «كان نجارًا»[1] يأكل مِنْ عمل يده، فلم يكن صاحب مال ليطلب ولدًا يرثه.

ثالثًا: لا يليق برجل صالح عابد أن يسأل الله ولدًا لمجرد أن يرث المال، فكيف يليق ذلك بزكريا صلوات الله وسلامه عليه.

فماذا كان الميراث إذًا؟

الجواب: هو ميراث النبوة والعلم، ولذلك قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، فلم يتميز آل يعقوب بالأموال وإنما تميزوا بالنبوة، فيعقوب نبي، وولده يوسف نبي، ومن نسله موسى نبي، ومن نسله الأسباط أنبياء، وداود وسليمان عليهم السلام، فهو يريد ميراث النبوة وليس المال.

البشارة بيحيى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فوجئ زكريا بهذه الإجابة السريعة ﴿ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ سميناه لك أيضًا ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يتسمَ أحد بهذا الاسم من قبل ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ هو لا يخبر الله بشيء لا يعلمه الله، فالله يعلم أن امرأته عاقر وأنه بلغ من الكبر عتيًا، بل هو صرح بذلك في بداية الأمر عندما قال: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وقال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لكنه استغرب هذه الإجابة على الرغم من أنه طلب ذلك فالمفروض أنه في انتظار الإجابة، قال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فهو هين على الله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهو سبحانه لا يحتاج لأسباب ومقدمات ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أتريد الدليل على هذا؟ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ إذًا انتهى الأمر ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة يعلم بها أن امرأته ستحمل وأنها علقت بهذا الجنين، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ فهذه علامة، سيأتيك يوم تفجأ فيه وأنت صحيح البدن والجوارح ويمتنع لسانك من الكلام، فإذا رأيت هذا اليوم الذي تعجز فيه عن النطق وعن كلام الناس فسيكون معنى هذا أن زوجتك حملت بهذه النطفة، وسيكون ذلك في ثلاثة أيام بلياليهن.

وذهبت الأيام وحملت امرأته وامتنع لسانه ولم يستطع الكلام ولكنه يستطيع أن يُسَبِّح ويذكر الله، فذكر الله لم يُحبس لسانه عنه، وإنما حُبِسَ عن كلام الناس، وذلك كبعض الأعاجم اليوم يقرأ القرآن قراءة صحيحة ويحفظه عن ظهر قلب ولكن لا يحسن الكلام العربي ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

عند ذلك خرج من المحراب ودل هذا على أن أكثر وقته كان في المحراب، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ والمحراب: هو المكان المخصص للصلاة في البيت أو المسجد أو العمل في أي مكان، أما هذا الذي في المساجد يسميه الناس الآن محرابًا فاسمه الطاق ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾.

ولادة يحيى عليه السلام:

قال الله ليحيى بعد أن وُلِدَ: ﴿يَايَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أعطاه الله الكتاب ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فأعطاه الله الحكم وهو صبي.

قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا﴾ أي: رحمة من عندنا ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وهناك كلام طيب جدًا للحافظ ابن كثير رحمه الله عن هذه الآية وعن قول عيسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ قال: «هذه الأوقات الثلاثة -وقت الميلاد، ووقت الموت، ووقت البعث- أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر، ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخًا عندما يخرج من بطن أمه إذا خرج من بين الأحشاء، وفقد لينها وضمها» فقد كان يعيش في محيط معين يعرفه في بطن أمه، وأول خروجه تتغير عليه الأمور فيخاف مِنْ هذا العالم الجديد لماذا أُخرجت من هذه الضمة الطيبة؟.

قال: «ثم ينتقل إلى هذه الدار الدنيا ليكابد همها وغمها، وكذلك إذا فارق هذه الدار الدنيا وانتقل إلى عالم البرزخ -دُفِنَ في قبره- بينها وبين دار القرار -فهذا البرزخ وسط بين الدنيا والآخرة- وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في الجنة وفريق في السعير».

فيحتاج يوم يموت أن يسلم في هذا الوقت، إذا سلم في هذا الوقت سلم في اليوم الذي بعده.

فأنت تُولد تبكي والناس حولك يضحكون، فهم سيبكون عليك حين تموت، ولكن ليكن يوم هُمْ يبكون أنت تضحك مسرورًا؛ لأنه إذا خرجت هذه الروح تلقتها ملائكة الرحمٰن، يبشرها الله بروح وريحان، ورب راضٍ غير غضبان، في جنات تجري من تحتها الأنهار.

ويقول الحافظ ابن كثير: «ولما كانت هذه المواطن أشق ما تكون على ابن آدم؛ سلَّم الله على يحيى في كل موطن من هذه المواطن».

وذكر الله قصة يحيى عليه السلام في مكان آخر كما في آل عمران قال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ما الكلمة؟ إنها «كن».

ثم قال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ وأما السيادة فهي سيادة النبوة، وأما الحصور فقد قال أكثر أهل العلم الحصور هو: العفيف المحافظ على فرجه الذي لا يأتي الحرام أبدًا.

قال زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ هناك ثلاث ليالٍ وهنا أيام فهي ثلاثة أيام بلياليها ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ﴾ وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ يقول جل وعلا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ﴾ قال أهل العلم: إصلاح الزوجة هنا؛ لأنها كانت لا تحيض لكبر سنها، وكانت عاقرًا فأصلحها الله فحاضت.

من أسباب استجابة الدعاء:

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ يبين الله لنا السبب الذي لأجله استجاب الله دعاءه، وكأنه سبحانه يقول لنا: من أراد أن يستجيب الله له كما استجاب الله دعاء زكريا فليكن مثل زكريا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، فلا يمكن أن يعصي الإنسان بالليل والنهار ثم يقول سألت الله فلمْ يستجب لي، كما قال النبي ﷺ وقد ذكر الرجل: «يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟»[1].

ابنا الخالة:

وعيسى ابن خالة يحيى كما قال النبي ﷺ في حديث الإسراء قال: «فرأيت ابني الخالة عيسى ويحيى»[2]، وكانا في زمن واحد، أم يحيى أخت مريم، وإما أن تكون خالة مريم فالله أعلم بذلك، المهم أن يحيى وعيسى كانا في زمن واحد واستمرت دعوتهما معًا صلوات الله وسلامه عليهما حتى مات يحيى ورُفِعَ عيسى.

---

١ أخرجه مسلم (١٠١٥).

٢ أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، وأخرجه مسلم (١٦٢).

ختامًا

الأنبياء عليهم السلام هم أشرف الخلق، وأهداهم، وأكملهم دينًا وعلمًا، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقتدي بهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقد امتثل ﷺ؛ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين ﷺ.

والأنبياء كلهم من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ جاؤوا برسالة واحدة عظيمة الشأن جليلة، وهي: توحيد الله عز وجل، فكلهم سعوا لتحقيق هذه الغاية السامية من الخلق وإن اختلفت شرائعهم كما قال ﷺ: (الأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ). أخرجه البخاري.

وقد ورَّثونا أجلَّ ما يُوَرَّث وهو العلم كما قال ﷺ: (...وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وَافر) أخرجه أبو داود وصححه الألباني.

فحريٌّ بذوي الألباب والعقول أن يسيروا على إثرهم، ويقتدوا بهديهم؛ فبمنهاجهم تُحصَّلُ سعادة الدارين.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه.

حقيقٌ بالإنسان أن ينفق ساعاتِ عمره بل أنفاسَه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلّا بالإقبال على القرآن وتفهُّمه وتدبُّره واستخراج كنوزه، وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمّة عليه؛ فإنّه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والمُوصِل لهم إلى سبيل الرّشاد. فلا يُقْتبَس النور إلّا من مشكاته، ولا تُسْتثمَر المصالح إلّا من شجراته.

-ابن القيم رحمه الله بتصرف.

نادي النورين
١٤٤٥هـ